صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACH

الثقافة
مجلة ثقافية أدبية شهرية
دمشق ـ ص ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

تموز (يوليو) ١٩٦١
العدد الثاني
السنة الرابعة

هذه المجلة والحديث عن الأدب

بين دوران الطابعة ، ودوار البحث عما يشبع نهم فمها الذي لا يشبع ، عملية احتراق أعصاب طويلة مرهقة مؤلمة .

ذلك أن تغذية مجلة أدبية ملتزمة أمر ليس بالهين ، وعملية الاختيار ، شاقة ، فمن بين مئات القصائد ، والقصص ، والابحاث والدراسات التي تتوارد ، لادباء معروفين ، وآخرين في أول الدرب ، علينا أن نختارالاصيل كائنا من كان صاحبه ، وعلى هذا ما أكثر ما يقفز اسم لم يسمع به من قبل ليحتل في المجلة حيزا ، وما أكثر ما تهمل أشياء ، ليست بنت حياة . وما أكثر العتبى ، والرسائل التي ترد مذكرة حتى أنها لتجرح في بعض الاحيان .

وفي غمرة الصراع الدائر بين القديم والحديث . كان لا بد للمجلة من أن تتخذ موقفا ، ينبعث من مفهومنا للادب أولا ، ومن واقع الحياة العربية التي تتفجر يوما اثر يوم ثانيا .

.. فهنا جديد يتمخض عنه المد الثوري ، والنظرة الجديدة للحياة ، والانسان . جديد ، يكافح من سنوات عشر أو أكثر ، لتوكيد وجوده ، وتوضيح ملامحه ، وتثبيت مفاهيمه ، جديد يحاول الداعون اليه أن يتخلص من البلاهة ، والقوقعة والدوران حول الاشياء الصغيرة ، بحيث تتوسع أطره ، فيسع كل الحياة ، عمقا ، ومثالا ، وواقعا ، مشمولا ، وتجزيئا .

وهنا قديم وسع التراث ، فحفظه ، وحافظ عليه من الغارات ، له سدنته ، والمنافحون عنه ، والعاملون له ، كان هو عطاءنا للحياة ذلك أننا صنعناه على صورتنا ومثالنا . ويتصادم المدان . ومن هذا التصادم تتولد الشرارة ، فتلد المعركة . ويمد التطرف مخالبه ، فلكل من الدعوتين غلاة . والغلو يغذو الغلو .

وبين هؤلاء صف طويل يتطلع بأناة فلا ينكر على القديم روعته ، ولا يصلب الجديد فينفي وجوده . لكنه يدرس ويتدارس بموضوعية العالم ، وبنظرة الناقد التاريخي المتجرد ، فيتوصل الى اليقين ، أو الى ما يقاربه ، فيضع يده على مبررات هؤلاء ودوافع أولئك ، وما يلبث حتى يدرك أن ليس كل القديم رائعا وأن ليس كل الجديد ـ حتى ولولم يخضع للمقاييس القديمة ـ خروجا على التراث ، وطعنا له . وانما هي دورة الحياة الكاملة التي تقتضي ، في ما يشبه التوازن أن تحافظ على وجودها واستمرارها وعدم الفراغ والانقطاع فيها ، وأن للاصالة سمة تحملها معها حيثما حلت .

فالثقافة تدرك اذن أن ليس الجديد مجرد زهرة صيف تفتح في الشتاء أو العكس ، فهي شاذة ، وهي خارجة على الطبيعة ، وسنة دوران الحياة ، مثلما تدرك أن القديم ليس أشياء متحفية مجمدة محنطة ، وأن من الجديد نماذج رائعة مثل ما في القديم ، وأن الجديد سيتعرض ـ مثلما تعرض القديم ـ للغرق الاعظم ، للغربلة العظمى ، وأنه لن يبقى من الجديد الا ما استطاع أن يدق أبواب الحياة فيفتحها ويرش خيط شعاع على ديجورها ، أو حبة دفء على بردها ، أو دفقة أمل وحب في شرايينها ، مثل ما حدث للقديم .

ومن هنا فهي لا تتورع أبدا عن أن تكون رسول الناس للناس فتنقل عطاءاتهم التي تتوسم فيها الزخم الحياتي ، سواء لديها ألبست لبوس القديم ، أم تخايلت بالمبتكر .

لان شعارها أبدا : وأما ما ينفع الحياة فيبقى في الحياة للحياة . وأما الرغوة فجفاء تتبدد .

(الثقافة)

الفكر الفلسفي في العالم العربي المعاصر

ما ساهم به العرب في دراسة تاريخ الفلسفة في المائة السنة الاخيرة

بقلم : الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

١ ـ لا سبيل لفكر فلسفي بدون حرية ، فعليها يعتمد ومنها يتغذى . ولا تنتعش الفلسفة الا حين تنتعش الحرية ، وحين يستطيع الناس أن يفكروا طلقاء في غير رغبة أو رهبة . ففي عصر أثينا الذهبي رسم سقراط وأفلاطون وأرسطو معالم للبحث الفلسفي لا نزال نهتدي بها الى اليوم . وفي بغداد مدينة السلام بدأت في القرن التاسع الميلادي حركة فلسفية ساهم فيها الخلفاء والامراء ، وكانت مبعث النور في العالم بأسره . وما ان امتدت شعلة منها الى الغرب حتى أخذ مفكروه يتحررون شيئا فشيئا من سلطان الكنيسة ، وقامت في القرن الثالث عشر حركة فلسفية واضحة في باريس وأكسفورد وبادوا . ويوم أن اكتمل هذا التحرر طلع فجر الفلسفة الاوربية الحديثة ، التي كان هدفها الاول أن تفك العقل الانساني من أساره .

وفي عصور القسر والظلمة تختفى الفكرة الحرة ، وتتضاءل وراء ستار من صيغ معقدة وعبارات غامضة ، ويصبح الناس ولا هم لهم الا مماحكات لفظية وجمل جوفاء . وأنا لنعلم أن مدارس الرها وجند يسابور في الشرق ما كانت تعرف قبيل الاسلام من مؤلفات أرسطو الا بعض رسائله المنطقية ، أما كتبه الطبيعية والميتافزيقية فكان محرما عليها أن تنظر فيها . وكذلك كان الشأن في الغرب ، فكان المعلم الاول يعد بين الملحدين ، ولم يسمح بترجمة شيء له الى اللاتينية الا بعض كتبه المنطقية . وكان لا بد للغرب أن ينتظر حتى يشرق ضوء الثقافة العربية في الاندلس ، فيأخذ عنها وينشىء في القرن الثاني عشر ديوانا للترجمة بطليطلة نقل بواسطته معظم كتب أرسطو من العربية الى اللاتينية . ويعيد التاريخ نفسه في العالم العربي ، فبعد أن ازدهر فيه البحث الفلسفي ازدهارا كبيرا ، أخذ يتلاشى منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، وبدأ الناس يحرمونه ويكفرون المشتغلين به . وحتى المنطق تضاربت فيه الآراء ، فمن قائل بحرمته ، ومن قائل بوجوبه ، ومن قائل بجوازه بقيود خاصة .

فابن الصلاح والنواوى حرما
وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة
جوازه لكامل القريحة

٢ ـ حمل الغزالي حملته الشعواء على الفلسفة والفلاسفة في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي ، وتلتها الحروب الصليبية التي صرفت الاذهان عن البحث والتفكير . ثم جاء غزو التتر في القرن الثالث عشر فأهلك الحرث والنسل في المشرق ، وقضى على كثير من معالم الحضارة والمدنية . ولم يكن المغرب أحسن حظا ، فقد بدأت حروب الطوائف والدويلات المتنافسة تنهكه منذ القرن العاشر . وما ان جاء القرن الثالث عشر حتى هزم الاسبان دولة الموحدين ، وفي أخريات القرن الخامس عشر سقطت مملكة غرناطة التي كانت البقية الباقية للحكم الاسلامي في الاندلس . وفي جو كهذا لم يكن بد للفلسفة أن تنكمش ، فأبيد كثير من كتبها ، واختفى اسمها ، ولم يبق منها الا شذرات درست في ثنايا الكلام والتصوف . على أن هذه لم تلبث أن استبعدت هي أيضا ، وحتى اخريات القرن الماضي ما كان يستساغ في العالم العربي فلسفة ولا تفلسف .

ونحن نعلم أن البحث الفلسفي يحيا عادة في مراكز ثقافية خاصة ، تكاد تنحصر في بعض العواصم والمدن الكبرى ، وتاريخ الحياة الثقافية لامة هو في الجملة تاريخ هذه المراكز . ولقد صدر البحث الفلسفي في الاسلام عن طائفة من الامصار عرفت بشيوخها ومن أموها من طلاب العلم والدراسة ، نذكر من بينها البصرة والكوفة ، والفسطاط ودمشق ، وبغداد وصنعاء ، والري والموصل ، ونيسابور وشيراز ، وأصفهان والنجف ، وتونس وفاس ، والقيروان وقرطبه . وقد فعل الزمان

فعله بمعظمها ، ولم يبق منهـا مقرا لبحث ودراسـة في القرون الاخيرة الا أربعة ، هي النجف والقاهرة وتونس وفاس • ففي كل واحدة منها جامعة اسلامية ، أو أن شئت عربية ، لها شيوخها وطلابها ، كتبها ومنهجها • ولكنها تلتقي في أن دراساتها انصبت على علوم الدين واللغة ، وان اختلفت في نزعتهـا الشيعية أو السنية ، وتعصبهـا لفقيه دون آخـر كمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة • وكان بينها تبادل ثقافي متصل ، وخاصة بين المساجد السنية الثلاثـة :ـ الازهر ، والزيتونة ، والقرويين •

ولا شك في أن الازهر أكبرها شأنا وأعظمها نشاطا ، وفي موقع مصر الجغرافي مـا جعله مقصد الطلاب من مختلف البلاد الاسلامية • وقد أمه كثير من شباب شمال افريقية ، وقضوا فيه سنين طوالا ، ثم عادوا الى وطنهم ليدرسوا في الزيتونة وجامع القرويين • وهو بهذا أوضح رمز للثقافة العربية في العهود الاخيرة ، درست فيه علوم القرآن والحديث ، والفقه واللغة ، وأهملت العلوم الاخرى اهمالا تاما من تاريخ وجغرافيا وحساب وهندسة • أما الفلسفة فكانت تعد من المواد المحظورة ، يعاقب طالبها ويحاسب دارسها • واذا كانت العلوم الازهرية تقسم عادة الى معقول ومنقول ، فان الاولى ما كانت تخرج عن البيان والبلاغة والبديع ، والمنطق وآداب البحث والمناظرة • وبقي الامر على هذا النحو حتى أوائل هذا القرن ، والى أن جاء فريق من المصلحين شاءوا أن يعودوا بالازهر الى وضعه الاول ، ويجعلوا منه جامعة تعالج المعارف الانسانية على اختلافها ، وتتوفر فيها حرية البحث والدراسة •

★ ★ ★

فثقافة العالم العربي فيما قبل المائة سنة التي نؤرخ لها رتيبة غير متنوعة ، جامدة غير متحركة ، مقلدة غير مبتكرة ، لفظية غير موضوعية • تكاد تدور حول نفسها ، تلخص الافكار العلمية في متون ، ثم توضحها في شروح ، وقد تفسر الشروح في حواشي وتقارير ، وكل ذلك أخذ عن السابقين لانه ما ترك الاول للآخر شيئا • وهي أيضا ثقافة محصورة ، قصرت على طائفة معينة وقفت نفسها عليها ، وكأنما كانت تعيش في الماضي دون أن يكون لها بالحاضرة صلة • تجهل التطور والتقـدم ، ولا تشـعر بحاجتها الى اجتهاد أو حرية •

٣ ـ آذن القرن التاسع عشر ببوادر نهضة فكرية حديثة ، بذرت بذورها في العالم العربي يمينا وشمالا ، أثمرت حينا وأبطأ بها الانبات حينا آخر • وقد هيأ لها وعي جديد ، وقيادة فكريـة جريئة ، وأخذ عن الغرب وتأثر به • وما أشبهها بالنهضة الاوربية الحديثة ، فكانت في بدئها أدبية لغوية ، ثم اتسع صدرها للعلم والفلسفة • توفرت لها وسائل الطبع والنشر ، فخرجت من نطاقها الضيق الى ميدان أرحب • غير أنه ان كان قد دعي اليها وأعد لها في القرن الماضي ، فانوسائلها لم تتمكن وثمارها الحقيقية لم تظهر الافي هذا القرن •

والبحث الفلسفي جانب هام من جوانبها ، أعانت عليه أمور كثيرة ، أخصها دعوة قوية الى التحرر الفكري والتوفيق بين العقل والنقل • نادى بها أولا جمال الدين الافغاني في اخريات القرن الماضي ، ثم انضم اليه محمد عبده ، فرفعا معا الصوت جهرة بحيث ملأ الاسماع كلها في الشرق والغرب • وكان لهما تلاميذ وأتباع في مختلف البلاد العربية ، حملوا الامانة وأدوا الرسالة ، ولا يزالون يعتدون بسلطان العقل ، وينادون بالاجتهاد والحرية • وحرص محمد عبده على أن يحدد فلسفته العقلية النقلية ، ويرسم للباحثين منهجها وغاياتها •

ومما مكن لهذه الدعوة قيام جامعات عربية حديثة واصلاح الجامعات القديمة ، فأنشئت في أوائل هذا القرن الجامعة المصرية التي تعد النواة الاولى لجامعة القاهرة ، ولم يكد يمضي على هذه ربع قرن حتى انضم اليها ثلاث اخرى في الاقليم المصري • واليوم في بغداد والرياض ودمشق وحلب وبـيروت والخرطوم وطرابلس وتونس والرباط جامعات عربية تساهم كلهـا في مضمار البحث والدراسة • وقد سبقها الى هذا المضمار جامعات أجنبية في بيروت والقاهرة ، وحملت المشعل ونهل من حياضها فريق من قادة الفكر في الجيلين الماضي والحاضر • وفي بعض العواصم العربية مدارس ومعاهد عالية تؤدي على نحو ما وظيفة الجامعـة ، وللبحث الفلسفي نصيب في خططها وبرامجها •

وابى العالم العربي الا أن يصلح جامعاته التقليدية الخالدة • ففكر منذ أوائل هذا القرن في اصلاح الازهر وادخال النظم الحديثة عليه ، وها هو ذا اليوم يشتمل على معاهد ابتدائية وثانوية ، وكليات عالية تليها تخصصات متنوعة • فتدرس فيه العلوم الحديثة من طبيعة وكيمياء ونبات وحيوان ، الى جانب التاريـخ والجغرافيا والجبر والهندسة ، ووجدت أخيرا اللغات الاجنبية غربية كانت أو شرقية سبيلها اليـه • وفيه بوجه خاص دراسـات فلسفية في الكليات وأقسام التخصص ، تخرج فيها عدد من أساتذة الفلسفة ومؤرخيها • وحاول جامعا الزيتونة والقرويين أن يحذوا هـذا الحذو ، ويدخلا على نظمهما كثيرا من وجوه الاصلاح والتجديد •

ففي الجامعات العربية الحديثة والقديمة أقسـام ومعاهـد للفلسفة وتاريخهـا ، وعلم النفس والمنطق ، والاخلاق والاجتماع ، وفي كل منها أساتذة متخصصون ، عرب وأجانب ، يعالجون المواد الفلسفية ، ويكونون جيلا

من الباحثين . وفيها انتاج فلسفي متصل من هيئة التدريس تارة ، ومن طلاب الماجستر والدكتوراه تارة أخرى . ويمكن أن يقال بوجه عام ان مؤلفات تاريخ الفلسفة في ربع القرن الماضي ترجع في جملتها الى النشاط الجامعي .

ولم يقتصر هذا النشاط على الانتاج المحلي ، بل امتد الى العالم الخارجي ، فبعثت جامعاتنا ببعوث الى أوربا وأمريكا للدراسة والتخصص في الفلسفة . واستطاع مبعوثونا أن يضعوا بحوثا بالفرنسية أو الايطالية أو الانجليزية أو الالمانية ، وكان نصيب تاريخ الفلسفة منها غير قليل . وللجامعيين العرب مساهمات في المجلات والمؤتمرات الفلسفية العالمية ، ومنهم من دعي للتدريس والمحاضرة في بعض الجامعات الاجنبية ، وكانت محاضراتهم مادة لكتب ومقالات .

ولا يفوتنا أن نشير الى الهيئات والجمعيات التي تكونت في نصف القرن الماضي ، وأمدت العالم العربي بطائفة من الكتب في الفلسفة وتاريخها ، من جمعيات للفلسفة واخرى للتربية وعلم النفس ، او لجان ومؤسسات للتأليف والنشر والترجمة . وكان لبعض الاديرة والمعاهد الاجنبية أثر واضح في البحث والتحقيق الفلسفي ، كدير الدومينيكان في القاهرة وأديرة اليسوعيين في لبنان . وهناك ناشرون في القاهرة وبيروت ساهموا بنصيب كبير فيما قدم لقراء العربية من كتب في الفلسفة وتاريخها .

وحياة أي نشر فيما يتوفر له من قراء ، وفي وسعنا أن نقول انه أضحى للفلسفة وتاريخها اليوم جمهور لا بأس به في العالم العربي . فهو يسعى في طلبها ، ويتتبع انتاجها ويتغذى بثمارها . ومما يلحظ أن هذا الجمهور يزداد عاما بعد عام ، ولا أدل على ذلك من تلك الطبعات المتلاحقة للمؤلف الواحد فيما لا يجاوز بضع سنوات ، وقد يصل عدد النسخ من طبعة الى عدة آلاف ، وأصبح توزيع كتاب لا يقف عند قطر بعينه ، بل يمتد الى الاقطار العربية جميعها . وعماد هذا الجمهور أولا وبالذات طلاب الجامعات ، وهم في نمو مطرد ، والى جانبهم هواة الفلسفة وعشاقها ، وهم أيضا في تزايد . ولا شك في أن ادخال الفلسفة في مواد الدراسة الثانوية كان ذا شأن في اعداد ذلك الجمهور وتكوينه ، وهذا أمر حديث العهد ، لا يكاد يصعد الى أكثر من خمس وعشرين سنة في المدارس العربية ، ومع هذا آتى ثماره بسرعة .

٤ — ان ما أسهم به العرب في دراسة تاريخ الفلسفة أثناء المدة التي نؤرخ لها يكاد يرجع كله الى هذا القرن ، فلم يظهر منه شيء يعتد به في القرن الماضي ، بل لعله يعود خاصة الى الخمس والعشرين سنة الاخيرة ، وهو بهذا غزير ومتنوع . غزير اذا ما قيس بالفترة التي ظهر فيها ، ففي موضوع ما أكثر من باحث وأكثر من كتاب في القطر الواحد ، وقد يتعدد ذلك بتعدد الاقطار . ومتنوع لانه يعالج الاشخاص والمدارس كما يعالج العصور والمذاهب . فلدينا كتب في تاريخ الفلسفة القديمة والمتوسطة والحديثة والمعاصرة ، واخرى في تاريخ الفلسفة الاسلامية والمسيحية ، وثالثة في تاريخ الفلسفات الشرقية .. ولدينا مجلات وكتب ، ومؤلفات ومترجمات ، بحوث مبسطة لعامة القراء واخرى دقيقة مستفيضة للخاصة . وفي اختصار اذا كنا بالامس القريب لا نجد مصدرا عربيا حديثا نحيل عليه ، فانا نستطيع أن نقول انا بدأنا نقيم دعائم مكتبة عربية في تاريخ الفلسفة .

أقمنا هذه الدعائم فعلا ، لانا أرخنا وحققنا النصوص أو ترجمناها ، ولا قيمة لتاريخ الفلسفة بدون نصوص يعتمد عليها ، واذا لم يكن في وسع طلابنا أحيانا أن يقرؤ النصوص الاجنبية فلا أقل من ان تترجم لهم . وقد نكون عنينا بالتأليف أكثر مما عنينا بالترجمة ، وما أحوجنا اليها لان فيها كسبا لغويا وموضوعيا ، ولقد ترجم العرب في نهضتهم القديمة قبل أن يؤلفوا . وربما هان أمر الترجمة فأقدم عليها من لم يتأهب لها ، مع أنها تتطلب تمكنا في الموضوع واللغة ، في اللغة المترجم منها والمترجم اليها . واذا كنا نشعر بقلق بعض المصطلحات الفلسفية ، فانها في الغالب وليدة ترجمات عاجلة وغير جادة .

واذا شئنا أن نوزع انتاجنا على مراحل التاريخ المختلفة ، وجدنا أن الفلسفة الاسلامية فازت منه بالحظ الاوفر ، خصوصا اذا أخذت في مدلولها الواسع الذي يشمل الكلام والتصوف . فأثيرت فيها مشاكل لاول مرة ، ودرست شخصيات لم يسبق درسها ، وكشف عن أصول لم يهتد اليها ، وحققت نصوص تحقيقا علميا ، وعولج الفكر الاسلامي معالجة شاملة تربط جوانبه بعضها ببعض ، وتجعل منه كلا متصل الاجزاء . وقد شق فريق من المستعربين هذا الطريق من قبل ، وأخذوا في رسم معالمه منذ النصف الاخير للقرن الماضي . وها هم أولاء يجدون الى جانبهم اليوم تلاميذهم وزملاءهم العرب باحثين ومحققين ، يتداركون ما فات ، ويصوبون الى آفاق أشمل وأبعد . ويمكننا أن نقرر أن في كثير من دراسات العرب في تاريخ الفلسفة الاسلامية عمقا ودقة ، وابتكارا وأصالة .

وعنينا بعد هذا بالفلسفة اليونانية ، والفلسفات الحديثة والمعاصرة فرنسية كانت أو ألمانية ، أو انجليزية أو أمريكية . فأرخنا لها ، وحللنا نظرياتها ، مترجمين تارة ومؤلفين اخرى . ولا شك في أنا أفدنا كثيرا من جهود مؤرخي الغرب وفلاسفته ، ولكن من بين ما كتبه

العرب في الفلسفة الحديثة خاصة ما يمكن أن يقارن بنظائره في اللغات الاجنبية ، على أن منه ما كتب بالفرنسية أو الانجليزية وكان محل تعليق وتقدير . أما الفلسفة المسيحية والفلسفات الشرقية فلم نعرض لها بعد الا في الجملة ، ولم نقف عندها طويلا .

قد يكون تاريخ الفلسفة أقل ميادين البحث ملائمة للهواة وغير المحترفين ، وما كتب فيه في ربع القرن الاخير انما تولاه في الاغلب فلاسفة ومختصون . لمسوا الصعوبات وأعدوا العدة لتذليلها ، عرفوا المنهج الحقيقي وحاولوا تطبيقه . لم يقنعوا بالنقل غير المباشر ، بل أبوا الا أن يصعدوا الى الاصول الاولى . فسعوا الى جمع المخطوطات ما وسعهم ، وجدوا في تحقيقها ، وعملوا على احياء معالم الماضي كي يحيوا مع الاقدمين حياتهم . وألموا ببعض اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية والسريانية ، أو التي لا تزل حية كالعبرية والفارسية والتركية ، ليربطوا الحاضر بالماضي ويقرؤا الفلاسفة في لغتهم .

ولا شك في أنه انقضى الزمن الذي كان يقوم التاريخ فيه على مجرد سرد وقائع وروايات ، دون تحر لاصولها ولا تأكد من صحتها ، ودون نقدها نقدا داخليا وخارجيا ، ودون استخلاص النتائج المترتبة عليها ، ودون مقابلة الآراء بعضها ببعض وترجيع ما يمكن ترجيحه منها . وتاريخ الفلسفة في الواقع باب من أبواب التاريخ العام ، ويزيده عسرا أنه تاريخ الفكر . والفكر في أساسه نفسي ، يترجم بألفاظ وعبارات يختلف الناس في فهمها وتأويلها . وهي وحدها تقريبا وثيقة تاريخ العلم والفلسفة ، في حين أن للتاريخ السياسي وثائق متعددة ومتنوعة . ومن الفلاسفة من لم يكتب كثيرا ، ومنهم من لم تصلنا كتبه ، فيلقى عبئا ، وأي عبء ، على مؤرخ الفلسفة . وفي هذا ما يحملنا دائما على أن نلح في اخراج كنوز مكتبات استامبول التي ورثت الثقافة الاسلامية منذ ستة قرون أو يزيد ، لا سيما وهي تكمل أحيانا حلقات مفقودة في تاريخ الفكر الهليني والهلينستي . ونعول تعويلا كبيرا على معهد المخطوطات بالجامعة العربية الذي يضع تحت يد الباحثين وثائق لا يتيسر لهم الحصول عليها .

يحتاج تاريخ الفلسفة الى ترتيب في العرض ، ووضوح في الاسلوب ، ودقة في اللفظ . ويمكن أن يقال بوجه عام ان مؤرخي العرب ذللوا كثيرا من هذه الصعاب ، فأنزلوا الفلسفة من السماء الى الارض ، وكتبوها بلغة العصر ، وأعانوا على فهم دقائقها ومشاكلها . وقد يكون المصطلح الفلسفي حائرا نوعا بين المؤلفين والاقطار ، حيرة المصطلح العلمي الحديث ، ولكن وسائل التلاقي تزداد عاما بعد عام ، بالرجوع الى المصطلحات القديمة والاخذ بما أقره مجمع اللغة العربية . هذا الى أن بعض المؤرخين ذيلوا كتبهم بقوائم للمصطلحات التي استخدموها ومقابلها الاجنبي ، وتلك سنة ما أجدرنا أن نستمسك بها ، ولو الى حين حتى تستقر لغة الفلسفة ويجمع كتاب العربية عليها .

★ ★ ★

وبرغم هذا كله لا بد لنا أن نقرر أنا من تاريخ الفلسفة في بداية الشوط ، وما أحوجنا الى جهود كثيرة ومتواصلة . ولا يزال القارىء مضطرا أن يلجأ الى المصادر الاجنبية ، اذا شاء أن يقف على حياة كثير من الفلاسفة وآرائهم . تنقصنا في الفلسفة كتب تاريخية وموضوعية ، كما تنقصنا نصوص ومعاجم . فلم تترجم بعد من فلاسفة اليونان ما ترجمه العرب في صدر الدولة العباسية ، ولم تعرف لغتنا من محاورات أفلاطون الا بعضها ، ومن كتب أرسطو الا أقلها ، مع أنها استكملت في ثقافات أخرى واستوفيت بحثا وتمحيصا . ولا تزال تعوزنا المراجع عن المدارس الفلسفية اليونانية السابقة لسقراط واللاحقة له . ومعلوماتنا عن شراح أرسطو أدنى بيقين من معلومات مفكري الاسلام في القرن التاسع والعاشر الميلادي ، مع أنهم يتمون السلسلة التي تربط الفلسفة الاسلامية بالفلسفة اليونانية ، ولا سبيل لان نقول الكلمة الاخيرة في مدى الصلة بينهما الا ان اتضحت أمامنا تماما هذه المرحلة . وتدخل فيها مدرسة الاسكندرية ، وهي بدورها لم تستوقف الباحث العربي كما ينبغي ، ولم تكتب فيها بقدر ما يقضي به موقعها الجغرافي وتوسطها بين أثينا وبغداد .

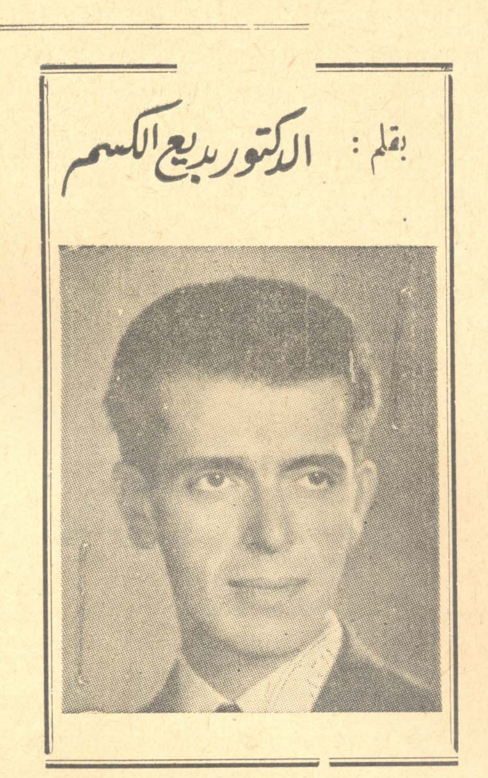
والفلسفات الشرقية أيضا كانت محل عناية مفكري الاسلام ، عرفوا منها أكثر مما نعرف ، وترجموا منها ما لم نترجم ، وفي **الفهرست** لابن النديم **والملل والنحل** للشهرستاني فصول تعد من مصادرها الاولى . ومن لنا بخبير في جدل المانوية والزنادقة خبرة أبى الهذيل العلاف والنظام ، أو بحجة في المذاهب الهندية مثل البيروني ؟ وقد أثر كل ذلك في الحركات الفكرية في الاسلام .

سبق لنا أن أشرنا الى أن فلسفة القرون الوسطى المسيحية واليهودية لم تستوقفنا طويلا ، ويجدر بنا أن نقرأ بين اللاتينيين للقديس أوغسطين وألبير الكبير وتوماس الاكويني كما نقرأ عنهم ، وأن نزود المكتبة العربية بآثار ابن جبرول وابن ميمون من مفكري اليهود . ولا نزاع في أنه ظهر منذ القرن الخامس الهجري تفكير فلسفي يهودي جديد يحمل طبعا اسلاميا ويكتب بالعربية أو العبرية ، وأن الفكر الاسلامي تلاقى في القرون الوسطى مع الفكر المسيحي ، وأثر فيه تأثيرا بينا .

والفلسفة الاسلامية نفسها لم تدرس بعد الدرس اللائق بها ، فلم يبين في وضوح كيف نشأت وتكونت ،

حول ازمة الانسان الحديث

بقلم : الدكتور بديع الكسم



لا شك في ان الانسان المعاصر انسان قلق . فلا عجب اذن في أن يدور قسم كبير من النتاج الفكري حول التعبير المباشر عن القلق أو حول وصفه وتفسيره أو حول علاجه وتجاوزه .

وحديثنا اليوم يتناول كتابا جديا عنوانه « أزمة الانسان الحديث » ألفه تشارلز نونكل ، استاذ الفلسفة في جامعة كولومبية ، ونقله الدكتور نقولا زيادة ، الى اللغة العربية .

يقـول المؤلف ان « القلق ، أي الشـعور بأن على الانسان ان ينتظر ، وهو خائر القوى ، اطباق القـدر المجهول عليه ، كان يجوز في وقت ما اعتباره عرضا من أعراض عصاب يصيب الافراد ، أما اليوم فهو حالة عقلية تتخلل الحياة ، يشد أزرهـا مؤسسات اجتماعية غـير شخصية ، وضغط اجتماعي نشعر به ولا نراه ولا نعرف شخصا يمارسـه ، وخطى الاحداث العنيفة ، وانهيار دفاعنا الفكري » وهو يلاحظ انه اذا قال أحد منا ، قبل ثلاثين سنة ، ان أي شيء ممكن كان هذا القول يحسب تعبيرا عن الامل ، أما الآن فيعتبر اشارة الى اليأس .

ان هـدف الكتاب أن يعالج أزمة الانسان المعاصر باشاعة نظرة في تطور المجتمعات وفلسفة في التاريخ ، هي فلسفة المذهب الحر او الليبرالية . وخلاصتها أن الفضيلة وليدة المعرفة ، وان زيادة الرفاهية المادية تزيل السبب الاصلي للرذيلة ، وأن تقدم العلوم هو الـذي

ولا العوامل التي ساعدت على نهوضها ، ولا الاسباب التي أدت الى انحطاطها والقضاء عليهـا . ولم يعرف برجالها التعريف الكافي ، وأعتقد أن كثيرين بيننا يعرفون عن روسو وسبنسر أكثر مما يعرفون عن الكندي والفارابي ولابن رشد آثار وذكر بالعالم اللاتيني أكثر مما له في العالم العربي . وما أحوج مؤلفات فلاسفة الاسلام الى الجمع والتحقيق والنشر ، فان قدرا منها لا يزال مخطوطا ، وما نشر لم تراع فيه جميعه قواعد النشر العلمي . وانا لنرجو ان يجيء يوم يكتب فيه عن الفارابي بقدر ما كتب عن موسى بن ميمون ، وتعرف مؤلفات ابن سينا كما عرفت مؤلفـات القديس تومـاس الاكويني ، ويدرس الغزالي كما درس ديكارت ، حين تبدو الفلسفة الاسلامية في ثوبها اللائق وتظهر بمظهرها الحقيقي .

وفي الفلسفة الحديثة والمعاصرة جوانب شتى لا أثر لها في العربية ، فاذا كنا شرحنا ديكارت وترجمنا له ، فانا في حاجـة لان نشرح مالبرنس واسبينوزا وليبنتز ونترجم لهم . واذا كنا عرضنا لبركلي ، فانا لم نعرض كما ينبغي للوك وهيوم . واذا كنا وضحنا بعض نواحي كانت ، فلا تزال تخفي علينا منه نواح أخرى ، ولا نزال في مسيس الحاجة الى ترجمة كثير من مؤلفاته . واذا كان استهوانا فرويد وسارتر ، فبين المعاصرين مفكرون آخرون جديرون بالبحث والدراسة .

وباختصار نريـد ترجمة في الفلسفة كتلك التي نحاولها في العلم والادب . نريد أن تؤلف بيننا جمعيات واتحادات فلسفية عربية تتعاون فيما بينها وتلتقي من حين لآخر . نريد أن تكون لنا مجلات فلسفية تفتح فتوحا جديدة وتعالج مشاكل مبتكرة . نريد أن يقرأ لنا كما لغيرنا ، وأن يأخذ عنا اليوم كما أخذ عنا بالامس ، وكما نأخذ نحن عن الآخرين .

ابراهيم مدكور

يحقق الاصلاح التدريجي ويتحمل مشكلات الانسان المادية والاجتماعية والخلقية ٠ انها فلسفة متفائلة ، تؤمن بالعقل والعلم والتقدم المستمر ويمثلها مفكرون من القرون الثلاثة الاخيرة من أمثال فولتير وكدندورسية وسيتوارت مل وبرتراندرسل ٠ صحيح أن المؤلف يعترف بأن القرن العشرين مليء بالنكبات والفواجع التي قد يكون من شأنها ان تطيح بالقيم التقليدية وأن تهدم في الانسان المعاصر آمال آبائه وأجداده في قدرة المدنية الحديثة ، وأن تجعل من وجوده وجودا مهددا كل لحظة٠ ولكنه يؤمن في الوقت نفسه بأن الآمال التي جاءت مع مطلع العصر الحديث هي نفسها الآمال التي نتأثرها في سيرنا ، وبأننا نستطيع ان نجابه العمل الاجتماعي مجابهة هندسية تعتمد على التخطيط المدروس والثقة بالمستقبل٠

ووسيلة في الدفاع عن الفلسفة الليبرالية أن نفيد الاعتراضات الكبرى التي وجهت اليها من قبل بعض المفكرين المعاصرين ٠ وهو يتناول بصورة خاصة تلك الاعتراضات التي تهاجم الفروض الاساسية التي يقوم عليها المفهوم الليبرالي للتاريخ ٠ وأول هذه الفروض الاعتقاد بأن التقدم البشري يمكن ان يقاس بمقاييس علمانية ، وأن هذه المقاييس التي لا تتجاوز مجال المصلحة البشرية الزمنية كافية لتفسير تاريخ البشر وتنظيم شؤونهم ، والثاني هو الاعتقاد بامكان تحقيق الكمال البشري تحقيقا غير محدود ، والثالث هو الاعتقاد بوجود حقيقة موضوعية في دراسة التاريخ والمجتمع البشري ، والرابع هو الاعتقاد بأن المجتمع يمكن ان يعالج في حدود أجزائه وأنه ليس بحاجة الى ان يعاد تكوينه دفعة واحدة٠ ويناقش المؤلف أربعة من المفكرين المعاصرين هم جاك ماريتان ورينهولد نيبور وكارل مانهايم وأرنولد توينبي الذين يمثلون على التوالي اعتراضات أربعة على فروض المذهب الليبرالي ٠

فجاك ماريتان المفكر الكاثوليكي المعروف وزعيم المدرسة التومائية المعاصرة ، يرى انه اذا كان لا بد للناس أن يؤمنوا بالقيم فانه لا بد لهم ان يقتنعوا بأن ايمانهم هذا ليس لمجرد مصلحتهم الفردية ٠ بل يجب عليهم ان يقتنعوا بأن القيم التي تبرر خضوعهم للسلطة الاجتماعية تستند الى شيء خارج عنهم ، شيء أبدي وغير متغير ٠ فالثقافة السليمة في رأيه تحتاج الى فلسفة تؤكد وجود الحقائق المطلقة الثابتة ، التي لا ترتبط بحقبة تاريخية معينة ، وهو يرى أننا اذا كنا نضج بالشكوى من أن حياتنا لا تسير الى غاية ومن انهيار معاييرنا الثابتة وارتيابنا بالمبادىء الخلقية وفي ازدياد العنف والارهاب في المجتمع الحديث ، فعلة ذلك المذهب الليبرالي نفسه ٠ اذ لم يحدث أن استهدفت حركة اجتماعية نشر رسالة السلام فنجحت في نشر رسالة العنف ، كما تم ذلك بالنسبة الى المذهب الذي ينكر الحقائق الثابتة ٠

وخلاصة رد المؤلف ان الذي يؤمن بفلسفة لبرالية او نسبية لا يقل اطمئنانه الى القيم القائمة عن اطمئنان من يؤمن بالحقائق المطلقة اذ ليس في النظرة اللبرالية للقيم الانسانية ما يحملنا على الظن بأن اختيار أهدافنا يتم دوما حسب الهوى والنزوة ٠ بل ان الولاء لعالم الحقيقة الذي هو أكبر من عالم المعرفة البشرية هو نفسه الذي أدى الى رفض الاعتقاد بالحقائق المطلقة ٠

أما نيبور وهو مفكر ديني متأثر بالحركة الوجودية فيمثل الاعتراض على الفرض الثاني من فروض المذهب اللبرالي والقائل بامكان تحقيق الكمال البشري تحقيقا غير محدود ٠ فهو يتساءل : لماذا تحطمت الآمال الكبيرة في الفترة الحديثة ؟ وجوابه ان حلم البشرية لم يكن سوى محاولة للهرب من القدر الانساني الذي لا يمكن تغييره او تحسينه مهما ضاعفنا مخترعاتنا الميكانيكية أو أدويتنا النفسية أو برامجنا الاجتماعية ٠ وتعليل ذلك انه حتى في خير العوالم الممكنة ، لا بد للحياة البشرية ان تنطوي على تناقض ثابت ٠ فالانسان من جهة أول مخلوق محدود ، وهو من جهة ثانية غير محدود في رغباته٠ انه فان ، ولكنه يستطيع التطلع الى ما وراء موته ٠ وهو محدود ، ولكنه قادر على رؤية ما وراء حدوده ٠ فحياة الانسان تتطلب أن يبحث عن نصر مستحيل وان يكيف نفسه مع خيبة لا مناص منها ٠ والنتيجة انه لا بد للناس ان يقضوا حياتهم كلها يصاحبهم احساس اساسي واضح هو الشعور بالقلق ٠ والقلق ليس خوفا من شيء محدود ، وليس ناجما عن أشياء معينة يمكن ان يعالج بالاساليب العملية ٠ انه شعور الانسان بأنه بعيد عن المطلق ٠ فالشر اذن وليد الخطيئة الاصلية وليس نتيجة التربية السنية والاحوال الاجتماعية ٠ انه حقيقة ايجابية لا يمكن أن تزول من الطبيعة البشرية ٠ ويرد المؤلف على هذا الاعتراض بأن المعرفة ان لم تجعل الانسان اكثر فضيلة فهي تجعله أقدر على حماية نفسه من رذائل الآخرين ٠ فاللبرالية قد نحت جانبا قضية الزلل المجبول عليه الانسان ، كما نحت جانبا قضية مصير الانسان في العالم الآخر ثم اسقطت مسألة الخلاص من مجموع المسائل التي يجب ان تفحص قبل وضع أي برنامج اجتماعي ٠ انها طالبت أن تكون مصالح الانسان الحياتية موضع اهتمام جدي ، وأن يعتبر الالم البشري مشكلة

تدعو الى بذل الجهود العملية لا الى الجدل الفلسفي حول ضرورته • ان اعتراض نيبور يستحضر لنا سرا ومجالا كونيين في الوقت الذي نجد فيه ما يزيد على حاجتنا من الاسرار والمجالات في حياتنا اليومية •

وأما كارل مانهايم ، وهو من اتباع المذهب التاريخي وزعماء علم اجتماع المعرفة فهو يمثل الاعتراض على الفرض الثالث ، ويرى ان المثل الاعلى الليبرالي قد انتهى الى الفشل لانه جرد العقل عن الطبيعة واقصاه عن الدوافع الحيوية للنفس البشرية وعن اوضاع الانسان الاجتماعية • وذلك يعني ان الحقيقة في مجال الانسان لا يمكن ان تكون موضوعية وانما تعبر عن موقف طبقة معينة وتخدم مصلحة خاصة • ولكن مانهيام يعتقد ان هناك مجالا للوصول الى حقيقة شاملة يقع عبء البحث عنها على فئة متميزة من المجتمع الحديث ، هي فئة رجال الفكر • فرجال الفكر يأتون من جميع طبقات المجتمع ولا يرتبطون ارتباطا وثيقا بوجهة النظر الخاصة بأية طبقة معينة • ولذا كان رجل الفكر هو الذي يستطيع أن يحطم العقائديات المتزمتة التي تفصل بين الناس ويقوم بالعمل الاساسي اللازم ليستعيد المجتمع الحديث تماسكه • ويرد المؤلف على هذا الاعتراض بأن الآراء التي يقبلها المجتمع العلمي هي موضوعية بمعنى انها تطابق مقاييس مجردة ومستقلة عن كل تصور فردي • فالاعتقاد بالانسان العاقل لا ينهار عندما نثبت ان الناس كأفراد مخلوقات تسيطر عليها الاحلام والمؤثرات المحلية • وليس الكلام على رسالة رجال الفكر سوى نسخة عن أقدم أنواع الفلسفات التاريخية • انها من ذلك النوع الذي يعهد لشعب مختار ان ينجز عمل التاريخ العظيم ويجد لدى جماعة ما من الناس وجهة النظر الوحيدة التي يمكن ان تنقذنا من متاعبنا • ان العلم النظري يصل الى حقائق موضوعية تحرر الناس من الاسلوب الضيق الذي يعالجون به مشاكلهم وتسمح لهم بأن يتلاقوا على مستوى رفيع •

أما أرنولد توينبي ، المؤرخ الحضاري وفيلسوف التاريخ المعروف ، فهو يمثل الاعتراض على الايمان بجدوى الاصلاحات الجزئية المتراكمة • فهو يلاحظ أن توزيع العمل في الصناعة قد دفع المؤرخين الى كتابة التاريخ قطعا توزعوها فيما بينهم كما لو كانوا في مصنع لتجميع القطع وبناء الآلات والاجهزة منها • فمن أفكاره ان الحضارة البشرية ، وهي نتيجة الاستجابة الناجحة للتحدي ، تكون كلا متناسقا • ان الحضارة السليمة تعبر عن روح واحدة • فنشاطها الاقتصادي لا ينفصل عن مقاييسها الخلقية ، كما لا يمكن ان يعالج أي جزء منها معالجة مستقلة دون الاخلال باتزان الاشياء كلها • ويرد المؤلف على هذا الاعتراض بأن فلسفة توينبي التاريخية تضعنا أمام اختيار بين اصلاح جزئي للنظم الاجتماعية يتم على دفعات ، وبين انتظار معجزة رؤيا روحية ، اختيار بين تحليل تجريبي وبين الاعتماد على بصيرة علوية قوامها الالهام •

انه اختيار بين نظرة الى المصير الانساني على أنه يتأثر بالغرض والمصادفات بحيث يكون للانسان حرية توجيه التاريخ وبين نظرة الى المصير الانساني ليس للبشر فيها سوى الخضوع التام لما قد خطط سلفا • ومع ذلك فان المؤلف يلاحظ أن توينبي يتفق مع ماريتان في أن المجتمع اللبرالي يظل قلقا ما دام يقيم اعتقاده الخلقي على أسس علمانية ، ولكنه يتخطى ماريتان بقوله ان الحقيقة ليست وقفا على ديانة معينة • وهو يتفق مع نيبور في توكيد الخطيئة الاصلية ولكنه يتخطى نيبور بقوله ان هدف التاريخ هو ازالة الخطيئة الاصلية في النهاية • وهو يتفق مع مانهايم في نسبة التفكير التاريخي ولكنه يرى ان في استطاعتنا تجاوز هذه النسبة لا عن طريق العقل ولكن عن طريق الشعور والوجدان • ولكن عيبه الاساسي انه يعلق خلاصنا على مصادفة هي ظهور نوع جديد من الانسان يحمل معه رؤيا عجيبة • يخلص المؤلف الى ان الشعور الحالي بالكآبة والقلق تجاه الحياة والكون هو وليد فلسفة في ما بين الطبيعة تجعل من الالم والخطيئة • وأسرار الغيب ومرارة الهزيمة ، مخططا للكون ومفتاحا للتاريخ •

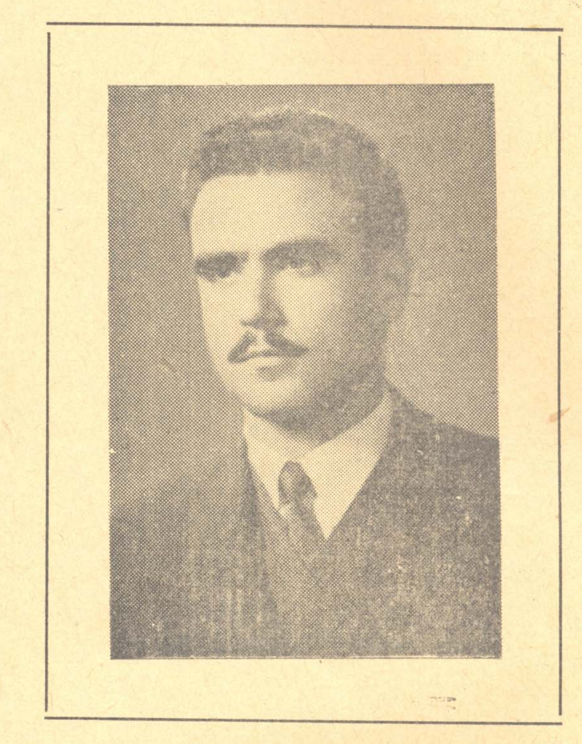
تلك خلاصة سريعة لكتاب يعرض لمشكلات هامة أوردناها دون تعليق ، وذلك حثا على قراءته وتقدمه لمناقشات مذهبية مفصلة نرجو ان نقوم بها في مناسبات مقبلة •



نداء الارض ..!

« وقلت لي يا جابلي : من الارض جبلت ، والى الارض تعود ..! »

يوسف الحاج



في شوارع المدينة المتعبة سرنا وراء النعش الرصاصي المحمل على عربة اسعاف .. مطرقين في بلادة ، متطلعين برتابة ، الى مواطىء أقدامنا الخائرة .. على الحجارة السوداء .. كان الموكب يخترق الشوارع الملتوية .. يصفع المنعطفات بهول المأساة الغامضة .. وتساءل الناس لمن الجنازة .. ؟ أغصان النخيل الصفراء ، أطرقت رؤوسها بخشوع واجلال .. كخشوع الفكرة المقدسة في محراب الابدية .. عوالم سرابية تبتلع الزمان . لم يكن كل شيء حقيقيا .. وتجمدت الدموع الخرساء كبرا في المحاجر التي يلهبها الغضب من الموت .. من قال أن الكائن الحي بأعصابه ودمه ومشاعره وشبابه ، بشموعه الثلاثين ، هو الآن في جوف هذا التابوت الرصاصي المغلق ..؟

من قال ان الكنار الذي أسكر عالمنا الخاص بأناشيده، سكت الى الابد ..؟

اذن اين عدالة السماء !؟ رحماك يارب ..! انني أكاد أجدف ..

دنوت الى السماء الحزينة وسألتها ماذا جنى ، ماذا اقترفت يداه ؟ لكن السماء كانت عنيدة ، عطشى الى السكون .. وانقطع سلك كهربائي . وكان الجواب . تلوث الشوارع فتصاعد من جنباتها الغبار ليكمل اللوحة. وأنت العربة . الرصاص الثقيل المغلف بالخشب ، تمنى لو لم يخلق ، فقد صهرته العيون المتقدة .. العاتبة بعنف . الباب مغلق .. مفتوح . ففي كل عين مفتاح ومخرز . وسار الموكب .. الريح تولول في العراء .. كانت أبواب الحوانيت تغلق على طول الشوارع الملتوية التي يخترقها الموكب الصامت . الاطفال تركوا أماكنهم وهرعوا للسير وراء الجنازة بصورة لا شعورية . هذا شيء من اللوحة غير المتكاملة .

تعثرت الاقدام ببعضها . واستطالت الشوارع الى ما لا نهاية .. كانت بلا حدود . ! وضاعت المسافات .. وارتبط كل التفكير بشيء اسمه وجود . وبأشياء أخرى غسقية .. رمادية ، لا وجود لها .. واغتال الصمت جدران الحس .. وفقد كل من الموكب ساقيه . وشرع في الدروب الهوائية يبحث عن شيء مفقود ..! وخبت الشعلة المجنونة ، وانداحت في الاعماق تأكل الاعصاب الواهنة .. عناء مطلق .. جمود كالصقيع .. رفيف ملائكة سود .. أناشيد باكية بدمع أزرق .. وأصوات وبحة تنشج في مرارة كئيبة . غبار يدوم في السماء الكالحة .. تلاطم شطئان بلا أمواج . وتوقفت سيارة سوداء ، وترجل منها شخصان . وتابع الموكب مسيرته ، وانقطع . لقد ابتلع المسجد فجأة الموكب الضئيل . زمرة الاصدقاء لبثوا في الخارج .. تطلع الاطفال الى وجوه بعضهم ، وحار على شفاههم سؤال مبهم ..! انهم لا يدركون بعد سر الموت الرهيب .. زنابق معفرة بالتراب تعيش الموت بلا وعي منها . تحيا على الامل القاتل .. الواقع . الامل . أشياء سخيفة .. انها جزء من المهزلة الانسانية الرهيبة .!

بعد لحظات تدفق الموكب من أبواب المسجد الواسعة كأبواب السماء ٠٠ وساد بهدوء باتجاه المقبرة البعيدة ٠ انها شوارع جديدة تلقى فيها أسئلة جديدة ٠٠ لمن الجنازة ٠٠ ؟

ليت الناس الفضوليين يكفون عن السؤال ٠ أو ليتهم يتوجهون بأسئلتهم الى السماء السوداء فعندها الجواب ٠٠ لكنه الفضول ٠ التفاهة ٠

أيجب علينا أن نحمل لافتة تفصح عن هوية الفقيد الذي انتظرته المدينة طيلة شهر كامل تترقب وصول جثمانه من البلاد البعيدة ٠٠ من قلب أفريقيا التي اعتصرت جذوة الحياة من أحداقه بعد أن غنى لها أروع القصائد ٠٠ على ألحان طبولها الطقوسية ينام ويصحو ٠ ومع شعبها عاش تفجر ثورتها ومجدها كل المجد ٠٠ مع وعلاتها المختبئات وراء التلال فتش عن النبعة الباردة ليروي عطشه الى المجهول الذي أطفأ « رامبو » ٠ وكان المصير المؤلم الغامض ٠٠!

انه شاعر مدينتي الحزينة ٠ فيها ترعرع وفي أجواء رياضها البسيطة تفتح على الرؤى الشاعرية وأطعم الحرف ذاته ٠٠ عاش تفجر لحظاتها ٠ وكان القوة الرائعة التي تأتي بالخير والجمال ٠٠ سقى أزاهيرها بالعبير ، فداخت بالشذا في ليالي سهده وعذاباته ٠٠ وعلم أطفالها جمال الحروف اليعربية ، ولقن كل من عرفه معنى الطيب السمح ٠٠ على مائدته في المقهى المنعزل ، في طرف المدينة الغربي يتحلق الصحب من عباد الحرف المقدس ليستمعوا الى الجديد من أبياته ٠٠ الى أغنيات البطولة والجمال والحب واليأس ٠٠ ! عشر سنوات عاشها في صحاري السراب ، في متاهات الفرح الخادع ٠٠

لكم نادى القمر ، وهيأ له الموائد الانيقة ٠٠ وعصر من قلبه القاني رحيق الكئوس ٠٠ وما استجاب القمر فحطم الكئوس المتوهجة ٠٠ وحطم قلبه ٠٠ واقتطف وروده الشابة ٠

٠٠ الشمس تجنح للمغيب ٠ والشفق الوردي يوشح الافق الغربي بوشاح من اللهب المجنون ٠ سرب من الطيور السوداء يحوم فوق سماء المقبرة ٠٠ يشارك في توديع الراحل ٠

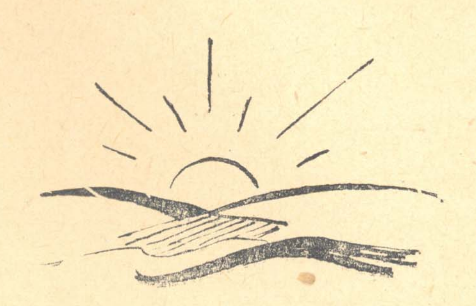
توقفت العربة على باب المقبرة ٠ أنزل النعش الرصاصي من جوف العربة ، وارتفع فوق عشرات السواعد الشابة التي كانت تود لو تدمي أناملها بأشواك باقات عرسه ٠٠ وكم انتظرت عودته لتقطف له النجوم المعنقدة وتعتصرها خمرة صافية لكأسه ٠٠ وتنضدها شموعا متألقة في دروبه ٠ وتزرعها شموسا ساطعة في نوافذ ليله ٠٠ حلم توارى في غيهب العدم ٠٠ كما تتلاشى أصداء الطبول في الغابات البكر ٠

في صعوبة بالغة استقر التابوت الحبيب في جوف الحفرة ٠ تراب ينهال ٠ وانتحر الكبر ٠٠ وتمرد الصمت ٠٠ وتفجر الدمع السجين ٠ ومن على ضريح قريب انسابت الكلمات من أعماق « نصر » وهو يؤبن الشاعر الراحل ويحييه تحية الوداع ٠٠ وتخلت السماء عن صمتها ، وأمطرت بسخاء ألوانا من الفجيعة ٠٠ وانحنت شواهد القبور تحية للزائر الغريب الذي لبى نداء الارض ٠٠ هذه الارض التي لا ترتوي من دماء الازاهير الشابة فهي بحاجة الى نسغ يغذي شجرة العود الابدي ٠

خرجنا من المقبرة بعد أن أودعناها قلبنا الكبير ٠٠ كنا في تلك اللحظة أشد اتصالا بالارض ٠٠ وعلى وجوهنا تناثر رماد اللفائف المرة ٠٠ على جدران المساء تساقطت ظلالنا القائمة ٠ أشباح مرعبة تنشد ألحان هذه المناسبة الخاصة ٠ سوط من نار يجلد قلوبنا ٠٠ يكتب بلهيبه المقدس خلاصة المأساة ٠٠ كلمات لا تعني شيئا كبيرا بالنسبة للكون ٠ لكنها ستظل تورق في حنايانا ٠٠ ستظل تقتات من دمانا على مر الاعوام ، ما دامت سمفونية المأساة تترنم في آفاقنا الجريحة ٠ الى أن نلبي - كل بدوره - نداء الارض ٠

★ ★ ★

حمص - يوسف الحاج



باب الخلود

القى الشاعر العربي الفحل عمر ابو ريشة هذه الرائعة الخالدة ، في مهرجان الشعر العربي لتكريم «الاخطل الصغير» فكانت ابرز واقوى القصائد التي انشدت .

هل في لقائك للخيال الزائر
اغضاء سال ام تلفت ذاكر

اشقته غربته ووثبة ظله
عبر الاصيل على ثراك العاطر

وحكاية السمار عن اوتاره
المتقطعات وشمله المتناثر

كنت الحفي به وكان ولاؤه
وهواك قادمتي جناحي طائر

كم في نديك من شموع شبابه
ما ذاب بين مزاهر ومجامر !

لا تجرحن له بقية زهوه
ان لم يهزك بالطريف النادر

عبث الليالي لم يدع في حقله
الا ادكار خمائل وازاهر

★ ★ ★

لبنان جئتك من غيابات السرى
ويدي على دقات قلب حائر

وحفيف أشباح الونى في مسمعي
ورفيف أطياف المنى في ناظري

واذا عروس ما استقر رواؤها
الا على متباين متنافر

بسمت الي ، وما سمعت للمتي الـ
بيضاء همسة وازع او زاجر

من انت ، قلت لها ففيك تقاتلت
شتى غوايات الفتون الآسر

اقبلت من صدر الربيع وقلت لي :
اتحبني ، اتحبني ، يا شاعري .

انا بدعة الدنيا وسر خلودها
هتكت على عري الحياة ستائري

تتلمظ الشهوات فوق محاجري
وتعربد اللذات خلف مآزري

وتسلسل النعماء حمر مراشفي
وتلف جيد النجم شقر ضفائري

حسناء ، لا تتقربي من خاطري
طوي البساط ونام جفن السامر !

★ ★ ★

وفتحت أبواب الثراء ، وقلت لي :
اتحبني ، اتحبني ، يا شاعري ؟

انا متعة العاني وفيء دروبه
وملاذة من كل صرف غادر

ترمي بأكداس النضار مواطئي
وتفض جلباب الظلام جواهري

واقيم حول ركاب عمرك اعبدا
يتسابقون الى نداك الامر

حسناء ، لا تتلاعبي بشعائري
حسبي من الينبوع جرعة عابر !

★ ★ ★

وطلعت من حجب الغيوب وقلت لي :
اتحبني ، اتحبني ، يا شاعري ؟

انا فيض آلام ووحي ضلالة
وسراب أحلام وقبر ضمائر

اقتات بالجرح السخي واشتهي
لو قبلت شفتاي مدية ناحري !

لا تهتدي بسنا الشموس احبتي
وتموت دون موارد ومصادر

حسناء ، لا تتغيبي عن ناظري
هذي يدي فتصرفي بمقادري !

* * *

لبنان ما خبأت عنك نوازعي
اتراك فيها عاذلي أم عاذري

يغنيك عني اخوة ما غردوا
الا وملء رباك ذوب حناجر

شربوا جمالك فانتشوا وتأنقوا
في بث نشوتهم تانق قادر

ولربما صاغوا سناه ، أساورا
لمعاصم ، وخواتما لخناصر

جمعتهم شيم الوفاء لمارد
في الشعر جواب الاعالي قاهر

ضفروا له من دوح ارزك غارة
اكرم بمضفور له وبضافر

هز الشذى اعطافهم فتساءلوا
من أي مخضل الكمائم ناضر

قد يذكر الندمان بين كؤوسهم
ما قال للعنقود سر العاصر !

يا لليد البيضاء في مر الندى
من زنبق في القفر نضو هواجر

كم مطبق باب الخلود وراءه
وشجونه في الدرب زاد مسافر !

ما اعتاد هذا الشرق ان يعطي الى
نبغائه الاحياء زند مناصر

* * *

امجنح الحرف الحرون ومرقص
الوتر الحنون على أنامل ساحر

الذكريات على الزحام تدافعت
فكأنهن لديك سرب ضرائر

فلايها تومي براحة تائب
ولايها ترنو بمقلة غافر !

غامرت في طرق الحياة ولم تزل
طرق الحياة حوافزاً لمغامر

فهصرت زهرتها بدمعة شاكر
وعصرت شوكتها ببسمة صابر

من كل محراب الجمال مطافه
حمل الحياة على اكف بشائر !

كم جولة لك في الصبابة والهوى
سدت مسالكها حبائل ظافر

ولكم تخطفك الخيال فعدت
بالعشاق من حرم الزمان الغابر

« عمر ونعم » يا خيام تلفتي
صوب العبير ، ويا نجوم تسامري

نشرا شفوف الليل حول جدائل
لمعانق ، وسواعد لمخاصر

يا طيب ما اختصر ارسالات الهوى
فيه ، ويا طيب الصدى المتطاير

حب طوته يد البلى ونشرته
وتركت ماضيه حديث الحاضر

وشجاك « عفرة » وهو يسحب خلفه
في الرمل تابوت الشباب العاثر

وخيال عفراء يسير أمامه
والموت في ذل العنيد الصاغر !

فاذا مغاني البيد في ذكراهما
رفات أهداب وبوح سرائر

اشفقت ان ينسى الزمان مكانها
فسللتها من ادمع ومحاجر

الحب مجلى الله ، كم من عابد
ساه بهيكله الوضيء وساهر

لبست عليه المجدلية خلعة
بيضاء باركها سماح الناصري !

غنيته بجماله وجلاله
ورويته عنك حرائر لحرائر

ما بال نعمته خبت نفحاتها
في كأس عربيد ومزهر فاجر

نرمي بمنسوب اليه وربما
انفت تلاوته شفاه عواهر !

* * *

يا مطرقا يصغي بخشعة راهب
متواضع ويغض طرف تفاخر !

ما زلت تسحب فوق كل معاند
ذيل الشموخ وفوق كل مكابر

او لست من نسل الاولى نسلوا العلى
وكسوا دياجير الورى بمنائر

وتطلعوا صوب الشموس واسرجوا
للفتح صهوة كل مهر ضامر

ومضوا الى غاياتهم ثم انثنوا
وعلى خدود النجم وشم حوافر !

عرفتك دنيا البغي صرخة ناقم
يزري بهيبتها ، وغضبة ثائر

أيام أعناق البلاد جريحة
بقيود نزاز الضغينة جائر

فهززت عزمة كل وان ، متعب
واثرت نخوة كل عان سادر

فاذا الجبال الشم لفح معاقل
واذا السهول الفيح نفح مقابر

واذا العبوديات تخلع ليلها
مزقا على قدم الصباح السافر

لا يحزننك ما ترى لفلولها
في القدس من راع لها ومؤازر !

أو ما تعبيء في الصحاري من قنا
للقاء مخضوب الوشاح جزائري !

أو ما تصب على الخليج اكفها
من سود اثام وحمر جرائر !

هي سكرة المذبوح مال بعنقه
ونزا على السكين نزوة حائر !

أرأيت كيف تجمعت هبواتها
في عاصفات زمازم وزماجر

وعدت على أرض الكنانة رعف
الاحقاد شراب النجيع الفائر

فمشى اليها كل اروع غاضب
وخطاه خوض ملاحم ومجازر

هيهات ما لانت عقيدة مؤمن
مهما تحدتها غواية كافر !

يا طول ما انهد الحديد مبعثرا
قطعا على خشب الصليب الطاهر

★ ★ ★

يا للهدير على الهديل طغى وما
ليدي تشد على جموح نافر

طال انتظار احبتي وتململوا
يا ملء ابصار لهم ، وبصائر

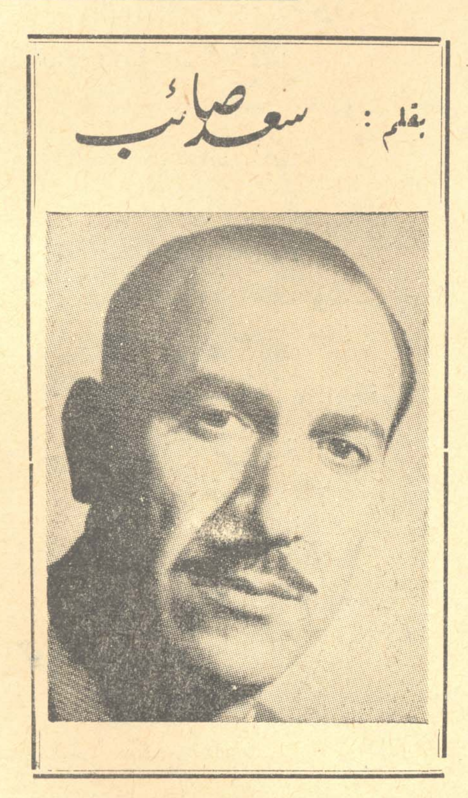
فاطلع عليهم ان دهرك تاب عن
أهوائه وأتاك سمح الخاطر

يكفيك ان تلقاه يطلع دولة
من مجد أقلام وعز منابر

وترى الضلال على سنا اعتابها
شلوا تجرره جباه جبابر !

أيهما أجدر بالتكريم . . . الغزالي أم ابن رشد ؟

بقلم : سعد صائب



حين بلغني نبأ اقامة مهرجان « بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لولادة الغزالي » تولاني دهش واعترتني حيرة ، فرحت أسائل نفسي : ترى لو عشت في عصر الغزالي وابن رشد ، وشهدت المعارك الفكرية التي دارت رحاها بين فلاسفتنا ، وسئلت أيهما تختار ، ومع أيهما تنحاز ؟ لاخترت ـ دون تردد ـ ابن رشد وقاتلت الغزالي معه ٠٠ وليس يعني اختياري ابن رشد ، وميلي اليه لعروبته فحسب ، بل لان ابن رشد كان محقا في صراعه ، وان الغزالي كان مضللا ، قد جعل الدين ـ لغلوه في تصوفه ـ ذريعة للنيل من رجال الفكر ٠ والحط من قدرهم واستعداء الحاكمين والعامة عليهم ٠٠ ولست أعرف فيلسوفا ناوأ العقل العربي ووقف سدا منيعا أمام انطلاقة الفكر وتحرره كالغزالي ٠ بل لست أعرف صراعا فكريا احتدم بين العروبة الاصيلة ، والشعوبية الدخيلة كالصراع الذي احتدم بين هذين الندين اللذين يمثلان أمتين ـ غالبة ومغلوبة ـ ويمثلان عقلين ٠٠ عقلا عربيا واعيا يعين قيم الحياة وينير حقائقها ، وعقلا عجميا جامدا متحجرا يحيا بالتصوف ويعرض عن الحقائق ، فلا يطور الحياة ولا يرتقي بها ٠٠ عقلا متفتحا ناميا يجاهد في خدمة الحقيقة ، وخدمة الحياة ٠٠ وعقلا ناقما يكره الحقيقة ، ويكره الحياة ويلعنها ويفر منها ٠٠ عقلا منطقيا حرا ، وعقلا صوفيا متزمتا ٠٠ ولست هنا في مجال المقارنة بين الفيلسوفين ، لان البون شاسع بينهما ، وحسبي أن أسبر غور حقيقة الغزالي وأتأملها دون التأثر بأية دراسة لا منهجية وعاطفية معا ، خبط فيها خبط عشواء بعض اولئك الذين درسوا الغزالي متحاشين أخطاءه وانحرافاته ، محاولين جهدهم أن يربطوا بين آثار هذه « الحجة » وبين قوميتنا ، دون النفاذ الى أعماق الحقيقة ٠ ولو أنهم حكموا ضمائرهم لاتونا بالصورة الذهنية الحقيقية التي سعى الى تكويننا هذا « الفيلسوف » والتي صدرت عن أصل لا وجود له في تكويننا العقلي ، ونشاطنا الروحي ، وحياتنا الاجتماعية ، والتي لم تكن صادقة بل كانت ـ بكل تعقيداتها ـ محاكاة وتقليدا للديانات الفارسية والهندستانية التي « تعد الفناء في الله وموت الخلق » هدفها وغايتها ٠ ولقد أجمع مؤرخو الغزالي ودارسوه على القول بأن حجر الزاوية في فلسفته الذي بنى عليه طريقته ليبلغ النتائج التي توخاها ، انه وأد المحاولة التي قام بها الفلاسفة للتوفيق بين الدين والفلسفة ، مما بعث على التنكر للفلسفة اليونانية التي كانت سائدة في عصره ٠ وانه كان ـ لفارسيته ـ متعصبا للتراث الفارسي ، مبغضا للتراث اليوناني ٠ فشاء أن يعكس هذه الحالة الشاذة على الفكر العربي ، ويفرضها عليه ، فكان عامل تهديم للبناء الذي انشأه الفلاسفة الاسلاميون على أساس الفلسفة اليونانية ٠ وكان غلوه في « الطريقة الصوفية » مدعاة لاضطرابه الباطني وشكوكه الفكرية وأزمته النفسية ، فأدى ذلك الى موقفه المتعنت المتزمت من الفكر العربي المتحرر الذي حاول جاهدا التوفيق بين الدين والفلسفة ـ والذي يمثله « ابن رشد » أجلى تمثيل ـ ٠ ولعل أصدق وصف لهذا الغلو هو « الاجترار العقلي » الذي يعرفه علماء النفس بأنه ميل الى الاستغراق في أحلام مجردة فلسفية أو دينية ، مما أبعده عن الاستدلال المنطقي ، ومرد ذلك عندنا الى « انفعاليته » التي أشار علماء النفس أيضا الى تأثيرها السيء في النشاط العقلي لانها تتبلور جميع النقائص العقلية التي تعاب على من يتصدى للبحوث الفلسفية ٠٠ لقد تعلق الغزالي بحياة أخرى وشاء أن يربط الآخرين بها ، بل شاء أن يفرضها فرضا ، فكان بذلك مغامرا ،

مغامرا روحيا ان صح هذا التعبير ، مع علمه باستحالة هذه المغامرة وخطرها ٠٠ لقد أضاع عالمه بل سعى الى تدميره ، وأبى الا أن يضيع عالم الآخرين وان يهدره ٠٠ لقد آمن بأن التصوف حقيقة فكان ضحية حقيقته ، بل كان مجتمعنا العربي كله ، خلال أجيال عدة ـ الضحية أيضا ٠٠

والسؤال الذي أثيره ، ترى هل كان الغزالي مصلحا دينيا ؟ الجواب : كلا ٠٠ لان زعماء الاصلاح الديني في كل أمة وجيل ، كانوا يؤثرون العقل على الاعتقاد ، أما هو فقد آثر الاعتقاد على العقل ، لانه أذل العلم زاعما أن « الانسان لا يبلغ الكمال الا بعدوله عن ممارسة ملكاته العقلية » وحسبنا برهانا أنه كان يكفر الفلاسفة في علومهم ، وأنه كان يزجر العامة عن الرياضيات وهو القائل في كتابه « المنقذ من الضلال » يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فانها وان لم تتعلق بأمر الدين ، لكن لما كانت من مبادىء علومهم ، يسري اليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيه الا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام التقوى » ٠

ومهما يكن من أفكار « الغزالي » ومن فلسفته ٠ فانه شعوبي مغرق في شعوبيته ، شاء عن طريق الدين أن يقتل الروح العربية التي تؤمن بالله وبالحياة وبالانسان ، وهو بالتالي امتداد للثورة الشعوبية التي قادها « ابو مسلم الخرساني » للثأر من العرب واسترجاع ما فقده الفرس ، بعد أن قوضوا دعائم ملكهم ٠٠ لقد كان « أبو مسلم » في زمانه ثائرا « سياسيا » يمثل الروح الفارسية الناقمة الحاقدة ـ وكان « الغزالي » الخرساني في عصره ثائرا « فكريا » يمثل التراث الديني الفارسي بكل ما فيه من « عجز عن التفلسف بهدوء ، وانقياد نحو التصوف بخياله المختل » ٠ واني لواثق بأن تعصبه نابع من مغالاته في التصور تجسدها فكرة ثابتة بأنه لكي يقضي على العرب ، وعلى الروح العربية ، والعقل العربي ، عليه أن يقضي على أصول معتقدهم وطريقتهم في ايمانهم بالله ورسوله وبالحياة أيضا ٠ لقد تبنى الطريقة التي انتهجها الفرس وساروا عليها والتي ورثوها عن أجدادهم متأثرين بالبيئة الفارسية ، وطبيعة الفرد الفارسي ذاته ، وشده ميله الى احتقار الحياة وازدرائها والاعراض عنها ٠٠ لقد شاء « الغزالي » للعرب أن يستسلموا عن طريق بدعة « التصوف » بعد أن استسلموا للتكتل الشعوبي الذي نفخ فيه وقاده من قبله « أبو مسلم الخرساني » فكأنهما كانا على موعد في القضاء على العرب والتغلب على مقاومتهم ، وكسر شوكتهم ٠٠ وكان هو بالذات شديد الحرص على بلوغ غايته متذرعا بالاخلاص للدين ، وافادته من العامة بعد أن أثر فيهم أشد التأثير وأقواه ٠٠ ويكفينا موقفه اللامبالي من « الحروب الصليبية » هذا الموقف الذي كان من المفروض أن يلهبه وهو « حجة الاسلام » وأن يفدح قلبه ويبهظ حشاه اذا كان حقا يحس بالخطر الداهم ٠٠ ولكنه كان خامد الشعور ، فلم تنبعث عاطفته ، ولا تحرك وجدانه أو قلمه أو فكره ، واني لاعزو لامبالاته هذه الى أنه لم ير في هذه الحروب ما يهدد بني قومه ٠٠

وبعد ٠٠ ألم يكن من الاجدى والاجدر بنا كدعاة للقومية العربية مؤمنين بها ، مناضلين من أجلها أن نكرم « ابن رشد » هذا الشارح العربي الكبير لارسطو ، والذي شهد له الغربيون بأن شروحه قد فتحت للعرب مغاليق الفلسفة اليونانية ، والذي كان عميقا في تحليله قادرا على شرح آراء ذلك الفيلسوف ؟ أما كان الاجدر بنا أن نمجد هذا الفيلسوف العربي ـ الصريح النسب ـ الذي فاق عصره ، وكان أحد كبار مؤسسي المناهج ، والممثل الحقيقي للفلسفة العربية ، وللعقل العربي ؟ أليس حقا علينا أن نعرف جيلنا بهذا الفيلسوف الذي « برز اسمه عدة مرات في معركة الذهن الانساني ، ولم يؤسس له مدرسة عند مواطنيه ، وأنه وهو أشهر العرب في نظر اللاتين قد جهل من قبل أبناء دينه تماما » على حد تعبير « رينان » أليس حقا علينا أن نكرم ابن رشد « العبقرية المبدعة التي ما انفكت ـ كما يقول رينان ـ تجعل المذاهب خصيبة بالاحاديث حول مشاهير المعلمين ٠٠ هذا الفيلسوف الحر صاحب الفلسفة العربية الحرة؟ هذا الدارس المجد الذي أجمع معاصروه على أنه لم يقض غير ليلتين بلا دراسة منذ شبابه الاول : ليلة وفاة أبيه ، وليلة بنائه بأهله ؟

أجل ٠٠ اننا مدعوون لتكريمه ، لان فيه وفرا من العقل العربي والطهر العربي والحماسة العربية والفضائل العربية والايمان العربي ، ولانه طبع فلسفته بطابعنا القومي وابداعنا الديني ٠٠

ولست أخالنا ونحن اليوم في تمام وعينا القومي نتنكر للنابغين النابهين منا ممن أرسوا قواعد الروح العربية ، وناضلوا بأفكارهم وأقلامهم من أجل الحفاظ على قدسية العقل العربي وانطلاقته وتحرره ٠٠ وانه لمن الخزي الفاضح والضلال المعيب أن نهمل تكريمهم والاشارة بتفوقهم وهم من أرومتنا ، وأن ننصرف عنهم وهم الذين عرفوا العالم بذكاء الطبع العربي ، وصفاء القريحة العربية ٠٠ أجل ٠٠ ما كان أطيب للنفس ، وأثلج للصدر لو اقتصرنا على تكريم النابغين منا ، وأرجأنا تكريم سواهم ٠٠

فهل ترانا فاعلين ؟

لست أدري ٠٠

دمشق **سعد صائب**

عقوق !

شعر ..

أحمد علي حسن

وعقني .. حتى خيال المنى ... وصدني .. حتى طيوف الهوى !!
فسل شبابي – وهو غض الصبا – ... ماذا حكى عنه ، وماذا روى ؟
اشكو الجوى ، ياليت اني به ... فرد الاسى ، لم اشك غير الجوى !
بي الف ناب ، جائع ناهش ... من الف ثعبان وذئب عوى !
هناك .. في وادي الاسى شيعت ... نفسي جنازات الخيال الذبيح !
وقلت للقلب : استرح ههنا ... فقال لي قلبي : ولن استريح !
رضيت بالصلب – ولو هالني ... حتى م يرضى الصلب ، هذا المسيح ؟
أنا الجريح الفرد في مفجعي ... لا يعرف الآلام الا الجريح !
أمر بالنور مرور الدجى ... من رفة الفجر طوى ، ما طوى !
ولي خيال في اراجيحه ... مكسر العزم فتيت القوى !
للمته في مخملي الرؤى ... لليأس ما لملمت .. لا للغوى !
وطرز الدهر وعاد الاسى ... لما رأى اني انا المحتوى !
ما بال واحاتي بتلك الربى ... لا تنبت المرعى ، ولا السنبلا ؟
وما لادواحي ، وقد زينت ... ملتفها ، لا تعشق البلبلا ؟
وما لاسراب الهوى أصبحت ... عن منتداها – عزفا حولا ؟
خبا لهيب الشوق في جانحي ... لا دفء يذكيه .. ولا مصطلى ؟

احمد علي حسن

عيناك قدري

قصة بقلم : غادة السمان

نوافذ البناء الواسعة المضيئة تنظر الى الشارع المزحم كأنها عيون كبيرة بلهاء ٠٠ وهي قد جلست وراء احدى النوافذ رصينة جامدة كعادتها ٠٠ وانكبت على بعض الاوراق حتى كادت تلصق وجهها بها ، كأنما هي تهرب اليها من عالمها ٠٠ ولماذا الهرب ؟٠٠

(لاشيء في حياتي سوى عملي ٠٠ أنا سعيدة ٠٠ لا شيء ينقصني ٠٠ أملك حريتي وقدري كأي رجل في هذه المكاتب ٠٠ أنا حرة سعيدة) ٠٠

سعيدة !٠٠ لماذا تظل تكرر لنفسها انها سعيدة ؟٠٠

عماد قال لها ذات مرة : « عندما نكون سعداء فعلا لا يخطر لنا ان نتساءل ان كنا كذلك أم لا ٠٠

السعادة تصبح جزءا منا ٠٠ انك لا تتساءلين اذا كانت يدك في مكانها أم لا ٠٠ نحن نتحسس الاشياء عندما نشك بوجودها ٠٠ »

لماذا تستعيد كلماته بهذا الحنين ؟ انها لا تحبه ٠٠

لا ٠٠ لم تحبه ابدا ٠٠ كانت تتسلى به كما يداعب ابوها جارتهم الحسناء كلما التقى بها على الدرج ٠٠ وكما يتلهى أي رجل في المدينة بالفتاة التي تروق لعينيه ٠٠ وهي « رجل الدار » ٠٠ لقد نجحت في أن تكون « رجل الدار » ٠٠ نجحت في تحقيق قضيتها ٠٠ انتصرت ٠٠ (ولكن قضيتك كانت فاشلة منذ البداية ٠٠ كنت تحاربين الشمس ٠٠ تريدين ان تشرق من الغرب ٠٠ ان تخرس الامواج وان يضل الليل طريقه الى دروب المدينة) ٠٠

٠٠ لقد انتصرت ٠٠ انها فاشلة كبيرة ٠٠ أفكارها تمزقها ٠٠ تحاول الانكباب على المصنف أمامها ٠٠ لا تستطيع ٠٠ انها تتعذب ٠٠ تكره ان تضعف حتى امام نفسها ٠٠ انها تتعذب ٠٠ تعيش مرارة نصر عجيب ٠٠ لماذا لم يقتلها أبوها يوم نبأوه بأن ابنة خامسة ولدت له ؟٠٠

ابنة !٠٠

جاءت بوقاحة بالرغم من تهديداته لامها ٠٠ بالرغم من تماتمها وادعيتها وذعرها ٠٠



لماذا ابعدوه عن فراشها عندما ثار وارغى وأزبد وهجم عليها بسكينه يريد ارجاع الطفلة الى بطنها بالقوة ؟٠٠ كان يريد صبيا بعد بناته الاربع ٠٠ وريث أمجاد دكانه وحلقته على رصيف الشارع ٠٠ وريث نرجيلته ٠٠ لا يريد لجمرها ان يخبو بعد وفاته ٠٠ لماذا لم يدعوه يقتلها ؟٠٠

يريد ولدا يسميه طلعت ٠٠ اسماها طلعت !!٠٠ يريد صبيا لا يضطر لسجنه في الدار بعد ان يفوز بالشهادة الابتدائية ٠٠ لا يخاف عليه من السيرفي الشارع وحده !٠٠

وهي قد وعتقضيتهامنذ البداية ٠٠ منذ اكتشفت ان أسمها طلعت ٠٠ منذ البداية وهي تكافح ضدالشمس ٠٠ تتعلق بأذيالها وتشدها كي تشرق من الغرب ٠٠

أصرت على اتمام دراستها بعناد كان يثير في نفس أبيها سرورا خفيا يفشل في اخفائه ٠٠ لم يعد يخشى عليها من السير في الشارع وحدها ٠٠ انها لا تتهادى

بدلال ٠٠ لا تعنى بمظهرها ٠٠ لا تثير اهتمام أحد ٠٠ تكره الرجال والشبان ٠٠ لا ٠٠ لا تكرههم ٠٠ الكراهية اعتراف بوجود الشيء المكروه وهي لا تحس بوجودهم على الاطلاق ٠٠ لا تريد ان تحس بوجودهم ٠٠ والافلماذا ترفض الدخول لتحية أية خاطبة شاء لها حظها العاثر ان تدق بابهم ؟٠٠

أحزان مبهمة تنمو في هدوء صمتها وفي غمرة احساسها القاتم نحو ابيها ٠٠ ترى فيه عالمها ٠٠ مجتمعها ٠٠ تتحداه ٠٠ تكرهه كراهية شفافة لا حقد فيها ٠٠ تشفق عليه ٠٠ تريد ان تكون رجلا كي ترضيه ٠٠ كي تذله ٠٠ تدفع أي ثمن لنصرها ٠٠ تريد ان يشعر انها تساويه ٠٠ تريد ان يحبها لانه يحترمها لا لانه يشفق عليها كما يشفق على اخوتها وعلى أمها ٠٠ كان من الممكن أن تكون كأمها الذليلة ٠٠ انها تثار منها ولها ٠٠ تنتقم من ضعفها وتنتقم لضعفها في كل صف اجتازته ٠٠ في كل شهادة فازت بها ٠٠

يوم حازت على شهادتها الجامعية رمتها بوجه ابيها كأنها تصفعه ٠٠ وفي المساء رمقته بنظرة تحد قاسية عندما فاجأته يغازل الجارة على الدرج ٠٠ لم تتجاهلهما بكبرياء أجوف كعادتها ٠٠ انها سعيدة باحترامه لها ٠٠ سعيدة باذلالها الخفي له ٠٠ سعيدة ٠٠ يجب ان تكون كذلك ٠٠

بعد شهر واحد يتجمع لديها مبلغ كاف لشراء سيارة ٠٠ سيارة صغيرة لها وحدها ٠٠ سيسهل عليها التنقل بين أماكن عملها الكثيرة ٠٠ الدائرة في الصباح ٠٠ مكتب الشركة بعد الظهر ٠٠ الدروس الخاصة ليلا حتى الحادية عشرة حين تعود الى الدار منهكة ثائرة تصيح في وجه أمها لان طعامها لم يجهز ثم تنتقده مهما كان نوعه كما يفعل أي شاب في الحي ٠٠ الا تجلس مع ابيها كل أمسية تناقشه في السياسة والمشاريع والدخل القومي؟٠٠ الا تدخن نرجيلته بينما هو يضحك فرحا بها وفرحا بظلال الذعر والعجز في عيني أمها ٠٠

تشعر فجأة بأن جمرات النرجيلة تحرق خديها ٠٠ وان دخانها يخنقها ٠٠ وانها تود لو تدفن خيبتها في صدر أمها وتحدثها وهي ترتعد عن عماد ٠٠ كم تتمنى ان تعيش معه ٠٠ يتشاجران ويتعاتبان ويلاحقها بين جدرانه الصفر وهي تعاتبه كعصفور فاجأه الربيع ٠٠ ويجلسان أمام الموقد في ليالي الشتاء ٠٠ يعد لها القهوة بيده وترشفها من فنجانه وينصتان لانامل المطر التي تدق نافذتهما ٠٠ ولا يفتحان النافذة حتى الصباح التالي !٠٠ ما هذه الخواطر السخيفة ٠٠ انها لا تحب عماد ٠٠ كل ما في الامر ان المصنف بين يديها قد انتهى وان عليها ان تجلب سواه وتغرق في عملها ٠٠ تنظر الى ساعة يدها ٠٠ لم يحن موعدها مع سلوى بعد ٠٠ تستطيع ان ترتب مصنفات اجتماع الغد ٠٠ تنهض نحو الخزانة الحديدية في ركن الغرفة ٠٠ تفتحها ولا تسمع انينها البارد ٠٠ تخرج مصنفا ٠٠ تستدير لترجع الى مكانها ٠٠ تقع نظراتها على شبحها المتهالك على الزجاج أمامها ٠٠ لا تدري لماذا تتأمل نفسها بفضول ٠٠ مظهرها عادي ٠٠ بذلت كل جهد كي لا تثير في الناظر اليها أي انفعال ٠٠ انها جميلة ٠٠ تعرف انها جميلة لولا نظارتها السوداء التي تخفي عينين مدهشتي البريق ٠٠ جوع ونهم ، وحنين وحرمان تختلط فيهما مع ظلال حمر لكاهنة شهوانية نذرت عروسا لاله من رخام ٠٠ جميلة لو انسدل الشعر المشدود بقسوة الى الخلف ، ولو خلعت رداءها الواسع السميك بياقته التي تشبه ربطة عنق رجل ، ولو برزت بعض ملامح خصرها النحيل كطوق ياسمين ٠٠

عماد وحده كشف سرها يوم رآها للمرة الاولى في الشتاء الماضي عندما جاءت تلقي على أخته دروسا خاصة في اللغة الانكليزية ٠

قالت أخته : « استاذة طلعت ٠٠ أقدم لك أخي عماد » ٠٠ نظر اليها ٠٠ لم تتجاوزها عيناه المتفرستان كما يفعل الرجال جميعا ٠٠ ظلتا تتأملانها ببطء ٠٠ عينان عميقتان خضراوان تجوسان وجهها كعاصفة عطر مثيرة ٠٠ وأحست ان نظراتهما تنزع عن وجهها النظارة السوداء ٠٠ ترمي بها قرب قدمي أخته ٠٠ تحل ربطة شعرها بحنان وتدغدغ آلام الخصل المشدودة ٠٠ نظراته تعريها من القابها وشهاداتها وردائها ٠٠ تزحف برعونة لذيذة فوق ذراعيها ٠٠ تبعث فيهما دفء شمس لم تلمسها ٠٠ تنحط بثقلها على الصدر فيزداد شموخا ويرتعش في حناياه شيء ما ويتخبط ٠٠ تعصر الخصر فيترنح بلذة عناقيد اثقلها الطيب ٠٠ رحلة نظراته في مجاهل عوالمها أرهقتها ٠٠ كشفتها ٠٠ جعلتها تشعر انها مضحكة وسخيفة ٠٠ وانها ليست الاستاذة طلعت ٠٠ وانها ليست سوى ممثلة اكتشفت فجأة ان ثيابها مضحكة وان دورها مضحك وانها بحاجة الى البكاء في صدر ما ٠٠ وأحبت عينيه يومئذ ٠٠ ولم ينقذها من ارتباكها الا ترحيبه الذي خيل اليها انه يفيض سخرية :

– سمعت عنك كثيرا يا استاذة طلعت ٠٠ أهلا وسهلا ٠٠

ابتسامته بعثت في أطرافها دفئا مفاجئا مسعورا ٠٠ ابتسامة رجل لامرأة ٠٠ ما أروع وما أسوأ أن تكون امرأة !٠٠

ولكنها جلست برصانتها المعروفة ٠٠ كررت الدرس لاخته ببرودها المعروف ٠٠ صافحته ببلاهة قبل ان تمضي ٠٠ ولما غادرت الدار أحست ان عينيه تطلان من غيمة معلقة قرب أحد أعمدة الكهرباء ٠٠ تضحكان منها بسخرية ٠٠ تتحديانها ٠٠ لا تدري لماذا خلعت نظارتها بعصبية وبللت شفتيها الجافتين بينما تدلت السفلى متعبة مثقلة ٠ وليلتها وقفت طويلا أمام مرآتها قبل أن تنام تحصي كنوزها برضى البخيل وحرص البخيل وخوف البخيل حينما يشعر بأنه لن يستطيع الا ان يدفع وان يمنح ٠٠

وقد منحت !٠٠ منحت أكثر مما تستطيع أن تمنح أية أمرأة ٠٠ منحت الكثير لعينيه ٠٠

لماذا تستعيد هذه الحكاية السخيفة ؟ المصنف بحاجة الى ترتيب ٠٠ لا ٠٠ يجب ان ترتكز أفكارها ٠٠ هذا أسلوب المراهقات في الخيالات ٠٠ يجب ان لا تذكره ٠٠ تريد ان تذكره ٠٠ تريد أن تستعيد تلك الايام لحظة لحظة ٠٠ تتلمظ بالذكرى ٠٠ (لماذا أهرب من التفكير به وكأنه شيء يخيفني ؟ ٠٠ انه لم يعن شيئا بالنسبة لي أبدا ٠٠ انها مغامرة كأية مغامرة لاي شاب ٠٠ جميع الشباب يستعيدون ذكرى مغامراتهم) ٠٠ هدأت نفسها لهذا التعليل وخيل اليها ان عينيه تزدادان خضرة وغموضا ٠٠

لقد منحت !٠٠ أجل ٠٠ منحت الكثير ٠٠

يوم مرضت أخته أصر عليها ان تبقى ٠٠ جلسا معا يتحدثان ٠٠ أعد لها القهوة بيديه ٠٠ القهوة رائعة عندما تشربها معه ٠٠ تختلف عن طعم القهوة في هذا المكتب ٠٠ الزمان يجمد أمام نظراته ٠٠ حديثه الذكي يخاطب انوثتها ٠٠ يتجاهل نظارتها السوداء ٠٠ يثير ضعفها وحنينها الى ما لا تدري ٠٠ لم يكن في عباراته جملة واحدة للاستاذة طلعت ٠٠ انه ينكرها ويستنكرها ٠٠ يتجاهلها ٠٠ وظلت أخته كريمة ومريضة ٠٠ وظلت تزورها لتطمئن عليها او لتطمئن الى انها ما زالت مريضة ٠٠ لا تدري ٠٠ كانت تريد ان تكون معه ٠٠ تشرب قهوته ٠٠ يحدثها ٠٠ يدفئها ٠٠ نظراته تجردها من الاستاذة طلعت ٠٠ تهدأ ٠٠ تستريح ٠٠ تتعب ٠٠ لا ٠٠ لم تكن تذهب من أجله وانما كانت تطمئن على أخته ٠٠

ويخيل اليها ان عينيه تضحكان ٠٠ تشدانها ٠٠ لترى الاشياء من جديد خلالها ٠٠ (كاذبة ٠٠ لماذا ظللت تزورينه في الصيف بينما أخته واهله جميعا في المصيف خارج المدينة) ٠٠

– (كنت اتسلى كأي شاب ٠٠ كأبي ٠٠ كزميلي في العمل ٠٠)

تدفن رأسها بين يديها ٠٠ تعرف انها تخدع نفسها ٠٠ لم تكن تتسلى انها قضية حقيقية كانت أكبر من أن تواجهها ٠٠ هربت منها ٠٠ هربت من شفتيه النهمتين وهما تجوسان وجهها في ليالي الصيف ٠٠

كان حنانهما يمزق أقنعة برودها ٠٠ فتنهد على صدره ٠ تخفي رأسها بين رقبته وكتفه ٠ تدفن دمعة لا تريد له أن يراها ٠ وهو يفهمها ويتجاهلها ويحبها ٠٠ وهو يقول انه يريد ان ينقذها من نفسها ٠٠ وترفع رأسها وهي تضحك ٠٠ تعرف ان ضحكتها لم تخدعه أبدا ٠٠ نظارتها لم تخدعه ٠٠ لا تستطيع ان تخدعه أبدا ٠٠

وفي الخريف منذ شهرين ٠٠ وقبل عودة أهله من المصيف ، عرض عليها أن تشاركه حياته !٠٠ جمدت ، ضحكت ، ذعرت لكلماته ٠ ثارت « الاستاذة طلعت » ٠ كادت تهوي ٠ غلبها حنين مبهم الى دار تفور في احدى زواياه أبخرة طعام أعدته بيديها ، ووقفت خائفة تنتظر ان يتذوقه ويثني عليه كأنما تعلق مصير عمرها كله برضاه واعجابه ٠٠ كادت تقول نعم ٠ تستحيل الى انثى ٠ الانثى ماتت يوم اسموها طلعت ٠ ماتت ٠ تماسكت فجأة أعادت نظارتها السوداء الى عينيها كأنها سد تحتمي به منه ٠٠ تعلقت بثوبها ذي الياقة التي تشبه ربطة عنق رجل والذي انطلق هاربا الى دارها ٠٠ لم تبك ٠ لم تقل شيئا ٠٠ جلست مساء كعادتها تسمر مع ابيها وانكبت على نرجيلته ٠٠ أمها تروح وتجيء بالجمر ٠٠ والدها يقهقه ضاحكا خاضعا ٠٠ وهي كالنمرة كاله اسطوري تنفث الدخان من فمها ومنخريها ٠٠ ولكنها لما أوت الى غرفتها ، خلعت ثيابها في الظلام وانهارت في فراشها ٠٠ كانت تخاف حديث المرأة !!٠٠

انتصرت ٠٠ لكن صوته ظل يتململ في عتمة ستائرها : « سأنتظرك كل أمسية في داري ٠٠ ستعودين يوم ترين الاشياء بعيني ٠٠ وتجدين نفسك ٠٠ ستعودين » ٠٠

ولكنها لم تعد ٠٠ انتصرت ولم تعد ٠٠ ترى الاشياء بعينيه بعض الاحيان ولكنها تتمرد ولا تعود : (لقد انتصرت في ان تهزمي نفسك ٠٠ قضيتك منذ البداية كانت فاشلة ٠٠ نصرك فيها أعظم فشل ٠٠ انت فاشلة كبيرة أيتها المرأة الرجل !٠٠)

تقرأ بعض الارقام في الملف أمامها بصوت مرتفع ٠ صوتها لا يحميها من أفكارها ٠

زميلها في الغرفة يتململ ٠ تعود الى صمتها ٠٠ يجب ان تسرع في اعداد المصنف ٠ غدا اجتماع الشركة لشدما أضحت تخشاه ٠٠ كلما وقفت لتتكلم بصرامتها المعروفة ، ينصت لها الجميع باجلال واكبار ٠٠ وفجأة تطل عيناه من مكان ما ٠٠ تهرب نظراتها الى الملفات ٠٠ تنزلق عيناه على المنضدة الكبيرة وتقفزان عابثتين بين المصنفات والارقام المعقدة ٠٠ ترثيان لها ٠٠ تغمزان لارهاقها ٠٠ تقهقهان ساخرتين ٠٠ تذكرانها بالقهوة الدافئة ودبيب أنامل المطر على نافذتهما ٠٠ تثيران حنينها لمقهى يستند الى بحر له شمس دامية الغروب ٠٠ وترقص الارقام في الصفحات كديدان مرعبة كما ترقص

الآن .. كما ترقص الآن ..

تتململ في مقعدها وتنفض الخواطر عن نفسها .. تنظر الى ساعتها مستنجدة انها تشير الى الثامنة الا عشر دقائق .. بعد نصف ساعة يحين موعدها مع سلوى ستخرج كي لا تتأخر . انها تتحرق شوقا لرؤيتها لم ترها منذ أعوام . منذ ان جاءت الى المدرسة ضاحكة ونفضت عن يديها غبار الطباشير للمرة الاخيرة ، فالتمع في أحد أصابعها خاتم ذهبي غاص قلب طلعت لمرآه .. واختفت .. وقالوا انها تزوجت .. وقرأت بعد أعوام انها انجبت ولدا . جميل من سلوى ان تذكرها وتهتف لها بعد كل هذه الايام طالبة مساعدتها في اللغة الانكليزية . قالت انها سترحل مع زوجها الى انكلترة بعد أشهر ولا تريد ان تبدو بلهاء هناك .. وضربت لها موعدا ظلت منذ أيام تنتظر حلوله بفارغ الصبر .. تريد ان ترى سلوى وتتشفى برؤيتها . تتمنى ان تشفق عليها .. تتخيلها سمينة مشققة اليدين أنفها محمر بعد شجار حار مع زوجها تنظف احدى النوافذ بينما ريح الشتاء تصفر في غرف الدار بينما ريح الشتاء تصفر في غرف الدار وتلسع طفلها الذي يبكي .. واثقة من انها ستراها هكذا ..

تخرج من المكتب دون ان تودع زميلها في الغرفة . لا يرفع رأسه اليها لقد اعتاد ذلك منها ، عامل المصعد يفتح لها الباب مرحبا . لا تنتبه لوجوده يتوقف المصعد. يفتح بابه . تخرج . لا تنسى التأكد من عنوان سلوى قبل أن تضيع في زحمة الشارع . تحاول ان تتسلى عن خواطرها بمراقبة العابرين . الوجوه كلها متشابهة . كلها تحمل قلقها وخيبتها وتمضي الى مكان ما .. تتغير الملامح والالوان .. يشدها جميعا خيط مبهم من الحسرة والخيبة .. كأنما لا ترى الا نفسها في كل شيء .. وعينا عماد ترصدانها تلاحقانها .. تثيران حنينها الى رائحته وشبابه .. شخصيته المثقفة وطموحه .. تتمنى ان تفنى عند جذوره ليمتصها قطرة قطرة .. لن ترى الشمس الا خلال وجوده .. ترتعد .. انه برد الشتاء بلا ريب .. يدب في شريط المخازن الطويل ويتغلغل في ذرات بردى المتعبة حيث تمر ، ويتكدس في أعماقها ثم يطفو عند أناملها بزرقته المريضة ..

تسرع في مشيتها . تخلف بردى متجهة نحو محطة الحجاز لتمتطي احدى السيارات العامة .. ساعة الحجاز تطل عليها كأمرأة مصلوبة في صدر الشارع .. كأنها سيزيف المدينة .. عقرباها يكادان ان يشيرا الى الثامنة .. نظراتها قد تسمرت بهما بينما هي تسير نحوها كدمية متحركة عبثت مسنناتها حديثا .. يخيل اليها انها تسمع دقاتها .. أبدا تدور مثلها ..الساعةالسابعة تخرج الى العمل .. الثالثة ظهرا تأكل .. الخامسة .. تخرج .. لا جديد .. هي لا تملك الا ان تعمل .. الساعة لا تملك الا أن تدور .. تدق .. دقة واحدة .. دقتين .. ثلاثا .. أربعا .. ثماني .. لا نبدع شيئا ..

يكاد العقربان يشيران الى الثامنة تماما .. لو تحدث معجزة مرة واحدة .. لو تعول الساعة بردا .. لو تهدأ لحظة وتستسلم عقاربها لاكداس صقيع الشتاء .. لو تنفجر .. تدق عشرين دقة .. الف دقة .. لو تتخلى عن آليتها الذليلة الخنوع وتصرخ : « انا متعبة .. سئمت عقاربي صريرها .. لن ادق الليلة ثماني دقات .. افعلوا ما تشاؤون ! » .. ويتجمع حولها رجل يخون زوجته وامرأة تشتم فتاة بادلت حبيبها السابق حبا بحب ، ورجال غاضبون لان زوجاتهم لم يلدن ذكورا ، وعوانس وحراس يسرقون عند مطلع الفجر بعد أن تنتهي مهمتهم .. يتجمعون جميعا ويرجمون الساعة بينماينهار زجاجها تحت الاقدام بلذة اله اختار مصيره ! ..

لا مفر .. درب خلاصها لم يولد .. الساعة تدق .. تمزق أعصابها .. تعد الدقات بحرص وحرقة عجيبة دقة .. اثنتين .. عينا عماد تضحكان بسخرية .. الاستاذة طلعت !.. السيد طلعت .. خمسا .. ستا .. دخان النرجيلة يتفجر في صدرها .. سبعا .. أبواق السيارات تقهقه ساخرة .. الكهل الذي عبر منذ لحظات يبصق باشمئزاز .. ثماني .. خرست الساعة .. عادت العقارب الى دورتها اللامبالية .. صمت أزرق مريض يخيم على كل شيء .. تسرع في سيرها الى دار سلوى .. ستنسى .. ستنغمس في عملها .. لم تعد تفكر بشيء .. لم تعد تشعر الا بوخزات البرد الذي يصفع وجهها بينما السيارة الكبيرة تسبح في أنوار المدينة الباهتة .. تصل . تهبط . تسير بضع خطوات . يطاردها متسول بعناد مزعج . ليس بين نقودها قطعة صغيرة له . تقول له ذلك . تقسم له . يخيل اليها ان صوتها ضئيل كوجه طفل مريض . يظل المتسول على الحاحه كأنه يتعمد احراجها . تشعر بحاجة للبكاء .. يمر بهما شاب .. يصيح في المتسول ان يدعها . يذعن بسرعة ويختفي مع صدى صوت الشاب عند المنعطف . تحس بحاجة مجنونة الى ان تركض وراء ذلك الرجل المجهول وتسير بجانبه . يحميها . يدفئها بصوته القوي الخشن .. مخلوق رائع هو ذلك الرجل !..

تقف أمام دار سلوى وهي ترتعد بردا . تتحقق من اسم زوجها على الباب قبل ان تقرع الجرس : « محمود سالم » .. لم تخطىء الدار . تنسل الى أذنيها الحان خافتة حنون . ليست هذه بالبداية التي توقعتها . كانت تنتظر عويل طفل . شجار زوجين .

تضيق أنفاسها . تهوي بيدها على الجرس بانتقام أحمق لم تستقم ردود فعله بعد .. تفتح لها سلوى بعد فترة صمت طويلة . تضيء النور أمام الباب . تهوي نظراتها عليها وكأنما في وجهها جواب لكل اسئلتها .. وتراها ويمزقها المشهد !..

جميلة نضرة .. يترقرق ندى النشاط في ملامحها

المتوردة ·· مسامها تصرخ بأنها سعيدة وحارة ·· تنكمش في ركن الباب ·· البرد يفور في عروقها ·· سلوى ترحب بها ·· تمد يدها لتصافحها ·· تهب غيمة دفء عجيبة على وجهها ·· وتضرب خديها بعد ان تنزلق على خطوط جسم سلوى البديع الذي بدا مرسوما بالنور المتوهج وراءها داخل الغرف·· تصافحها بيدها المرتعشة تلحظ انها أضحت امرأة مذهلة النضج والاكتمال تشدها سلوى من ذهولها الى الداخل ·· الى حيث تغمرها غيمة الدفء ·· دفء عجيب الرائحة يفوح من ثنايا الدار ·· يختلف كثيرا عن دفء المكتب والشركة والمؤتمرات ·· دفء يذكرها بموقد عماد ··

وتجلس بعد ان تصافح زوجها وتتبادل معه كلمات المجاملة شبه منومة ·· غيمة الدفء تسيطر على حواسها ·· تغالبها وتكاد تغلبها ·· فيها الكثير من رائحة ليالي غرفة نوم وردية معطرة ·· وفيها من عبير حمام فستقي الرخام ترن بين جدرانه ورذاذه ضحكات نشوى ··وفيها من أبخرة حساء شفاف تبدو خلاله رسوم صحن أنيق·· وفيها من زقزقة طفل يزحف مبتسما وتراه يتمسح بقدمي سلوى ·· غيمة الدفء تمزقها نظارتها تلسعها·· الياقة التي تشبه ربطة عنق رجل تضيق حول عنقها تضيق · تكادتخنقها · تلهث · ترتعد · تسعل · سلوى تعانقها وتجلس بجانبها ما أحلى رائحة العطر المنبعث من شعرها · ما أجمل عقدها الماسي · بريقه المضيء ذو الالوان المتعددة سكين من قوس قزح تغوص في صدرها ·· يالنعومة ثوبها · يا لجلدها الذي صبغته لمسات أنامل رجل ورديا شفافا كفجر ·

جلست تحدثهما وقد ازدادت انطواء ستصمد ستتماسك · كم تبدو جميلة لو ارتدت مثل ثوب سلوى · « دروس اللغة الانكليزية ضرورية فعلا دعينا نبدأ منذ الآن » عطرها رائع اذا التقت بعماد ستضمخ له جيدها به · « احضرت لك كتابا سهلا ونافعا » · ما أجمل ساقيها في الحذاء ذي الكعب المرتفع · طفلها جميل تتمنى ان تضمه وتقبله · « ما بالك ياسلوى مرتبكة ·· دعينا نبدأ » ·· لماذا يقترب زوجها ويقف وراءها كأنه يحتضنها ؟ لماذا يعذبانها ؟ محمود يتكلم ·· يبدو انه يقول شيئا ·· « عفوا ، ماذا كنت تقول ؟ » ··

ـ سلوى خجلة منك ·· لقد نسيت ان الليلة عيد زواجنا لكنني لم انس اننا نعتذر منك ولكننا سنقضي سهرتنا في المطار · لماذا لا تسهرين معنا ؟ أرجوك ان تقبلي ··

ـ شكرا لكما ·· انني متعبة جدا لا ·· لن أشرب القهوة ·· يجب ان أذهب » ·· تودعهما بشيء من الخشونة تنطلق هاربة من الدار العجيبة ·· لا أحد يريدها ·· طفلهما الرائع ما زال يلوح لها بيديه ·· تخاف منه تشعر بالعجز أمامه ·· انها ساعة بلهاء ·· لا تبدع شيئا ·· مجرد ذرة تافهة على هامش الحياة ·· ساعة مصلوبة ·· الزمان موجود سواء تمردت عقاربها أو دارت ·· وهي تدور وتدور وعبثا تدور ·· غيمة الدفء انسكبت وراءها ·· تلاحقها ·· تدفع بهافي الدرب الى دار عماد ·· لا تستطيع ان تقاومها ·· جزء من غرائزها ·· تحملها في ثنايا جسدها ·· في نبضات قلبها المرتعش ·· تطرد من صدرها دخان النرجيلة ·· لماذا لا تنطفيء جمراتها ؟ ·· الشمس لن تطلع · الا من الشرق ·· من يبارزها ؟ ·· الليل يتحدى الدروب والابدية ·· وهي تعرف الطريق الى صدر عماد ·· الى دفء عماد وجدرانه الصفر المهجورة شي ما ينفجر في رأسها ·· عيناه تطلان من كل شيء ·· من الجدران حولها ·· من وجوه العابرين · من أصابع يدها التي تحاول ان تمسح بها النار عن جبينها · من معطفها حول رقبتها ·· عيناه ، حارتان عاتبتان ممزقتان ·· عيناه ، بكل ما فيها من حنان وثقة وأحلام ·· يمر رجل ويقول شيئا ما · لا تسمعه · عيناه تطلان من كل شيء مجنونتان قاسيتان · ترصدانها كقدر · لا تستطيع أن تهرب من عتابهما اليائس ·· « ياعماد ·· قل لي ماذا أفعل ·· انتظرني » متعبة ·· تكاد تهوي ·· رائحته تفوح من المطر من الاضواء · من أحجار الشارع الف الف تحبه وتخشاه ·· الف الف تحن الى شفتيه تطوفان مجاهل عوالم يخفيها ثوب ومعطف ·· « يا عيناك ·· يا آفاق الرعب ·· الى أين أهرب ؟ » لماذا تهرب وهي ترسمها في كل منعطف ؟ يا الف حنينها الى جدرانه الصفر العارية ·· تهرب منها لترسم في كل زقاق دارا له تحن اليها ·· « عيناك قدري ·· لا أستطيع ان أهرب منهما وانا ارسمهما في كل مكان وارى الاشياء خلالهما » بذهول تردد « عيناك قدري » ·· الفكرة تنتشلها من عجزها ويأسها ·· تدب في عروقها قوة عجيبة مدمرة ·· تريد ان تخلق شيئا ·· دارا ·· أسرة ·· غيمة دفء ·· تركض فجأة ·· لا ترى الناس الذين يرمقونها بدهشة ·· لا أحد يهمها تركض ·· شعرها يتبعثر ·· نظارتها تسقط ·· تتحطم تحت أقدامها ·· تركض · المطر يبللها · سيارة مسرعة تنثر الاضواءعلى وجهها · تبتسم · رائحة عماد في كل شيء ·· في الظلمة والمطر والبرد والريح ·· كيانه المبهم يحوطها · يحنو عليها · يناديها · المصنفات تهرب أمامها ·· الارقام تقفز منها مسعورة · تدور في المياه المتجمعة · تذوب في وابل الامطار وتنحدر معها في مجاري المدينة ·· وهي تركض اليه ·· ماذا تقول له ؟ ·· لن يكون هنالك متسع للكلام ·· الشمس لن تطلع الا من الشرق ·· الامواج لن تخرس ·· الساعة لن تدق الليلة تسع دقات ·· عشر دقات ·· ستهمس انا سعيدة ·· سعيدة بين أبخرة غيمة الدفء ·· ماذا تقول له ؟ · يكفي ان تهتف « عيناك قدري ·· لا أحد يهرب من قدره يا عماد » ··

غادة السمان

حس الفجيعة

شعر

الدكتور صالح الأشتر

« كان يدرس في باريس عندما اختطف الموت روح أبيه في حلب ، وأخفى أهله عنه نبأ الفاجعة شهرين حتى اجتاز امتحان الدكتوراه ، ولكن قلبه المرزأ أحس بالفاجعة في حينها »



حبسوا نعيك عن فؤاد عنده
حس الفجيعة قبل علم الناس

كذبوا علي وموهوا تزويرهم
لكنهم لم يكذبوا احساسي

أحسست روحك رفرفت بأضالعي
وسرت كوهج النار في أنفاسي

وشعرت أن الوهج آخر ومضة
لك في الدنى ففزعت من وسواسي

وسألتهم أن يفصحوا فتلجلجوا
بحدادهم فطغى علي ياسي !

★ ★ ★

رعيا لهم كتموا المصاب ، فثغرهم
يفتر عن بشر وعن ايناس

وقلوبهم مزق يفتتها الاسى
أشلاء مزقها المصاب القاسي

أخفوا نزيف جراحهم ولو أنني
أدعى لها كنت الطبيب الآسي

واروا رفاتك في ذرى (جبل العظا
م (١)) تجله لتظل فوق الراس

ويراك شانئك الحسود برغمه
جبلا على جبل أشم راس

★ ★ ★

يا حسرتا ! تمضي قبيل لقائنا
وتغيب في رمس من الارماس !

باريس ١٩٥٣ — **صالح الاشتر**

(١) ـ جبل في ظاهر حلب كان الى عهد قريب مقبرة الاحياء الشمالية الغربية منها .

حياة

شعر : الدكتور أحمد كمال زكي



قالت الغيمة : هيهات ..
فندفي ذره صبح .. فمال
وسأمضي
مثلما شئت .. تواريني التلال
وأخي الليل ، حبيبي
لم أذيال التخوم السود تحتي
وهمى الصحو وسال
يا لمرج دف بالنعمى .. سنابل
مد نهر ..
وشوشات لنخيل ودوال
نقر الورد سنونو
ومحال أن يرى الورد سنونو ، ويقال
لم يزل ليل ..
وقد داح بواح ، ومواويل طوال

★ ★ ★

ثم دق العيد بابي .. يالضيف من بعيد
يا لكفين تبيحان النوال
بعثر الحزن على الدرب .. وبدد
بوح آه
نفث مكروب وضال
ثرثرات الليل في أذن المريض
باسما ـ يا حلوتي ـ ينسج ..
لي النور دثارا لجمال
أنا خلت الافق والارض ونفسي
كلها .. ركض سجال وسجال
للمدى !
لمراح الدفء ..
للطيب الندي !
فأرى ـ يا حلوتي ـ العمر ..
رهيفا .. ومريضا دبت الروح به بعد ملال
وسمعت الحب ..
هذا الفاتن المعبود يهمس :
أي نعمى
أيها الشاعر تلقى
أي فردوس .. لقد نلت المحال
عش كما شئت مع الانجم .. غن
انطلق .. فالخلد في جنبيك جال

★ ★ ★

لحظة وانفلتت ..
يا حلوتي ! راحت ، فما الحب ..
وما الحزن ، وما العيد ..
وما الغيم ، وما الصحو ..
اذا الموت أتى بعد ليال

احمد كمال زكي

مظاهر النمو والتطور ودلالاتها الفنية

بقلم : عبد الكريم الاشتر

تغطي الروايـة مرحلة من الزمان حافلة من عمر المجتمع المصري الحديث ، مرحلة حادة ، ذات مفارق سياسية وفكرية خطيرة ، كان المجتمع المصري خلالهـا يعاني آلام الحمل والمخاض ، والاجهاض أحيانا • فنحن على أعتاب ثورة ١٩ ، والاحتلال الانجليزي ترشح منه ذكريات ثورة عرابي الخاسرة ، والجنود الاستراليون يملأون الطرقات ، من حول الازبكية ، ويسدون منافذ الاحياء الشعبية • ويصادرون الرجال العائدين الى بيوتهم في الليل • وسعد زغلول رمز النضال ، يترجم هـذا الغليان انذارات حينا ، وتهديدات حينا ، وتمردا ونفيا ومفاوضات ، ثم ثورة دامية وشهداء وما تم •

ثم كان المجتمع المصري ، خلال ذلك ، يعاني صراعا نفسيا حادا ، توشك أن تنبثق عنه أحوال جديدة في الشعور والعادات وطرق العيش ، فتزول معالم ونماذج بشرية ، تمثل مرحلة اجتماعية مستهلكة ، وتنمو معالم ونماذج أخرى أكثر استجابـة للمرحـلة الاجتماعية الجديدة • فقد كان (أحمد عبد الجواد) ـ وهو عميد أسرة عبد الجواد التي تمثل شخصياتها النامية ، الحياة المتطورة في هذه المرحلة الطويلة ، كان هذا الرجل يفسر حياتـه في البيت والدكـان ومجالس اللهو ، والمجون ، ومقامات العبادة ، تفسيرا يخلو من الشعور بالاثم ومن الشعور بالكبت ، على حد معا • وهي بالرغم من هـذا التناقض العجيب في السلوك تسمو على الصراع ، وتحتفظ بوحدتها • ولكن حياة متطورة أخرى تنبثق من صلبه ، هي (كمال) ابنه ، تختلف تجاربه وثقافته والمرحلة التاريخية التي يعيشها ويحاول تفسيرها • فيعجز عن جمع عناصر الصراع هذه ، والثبات لها في وحدة نفسية سليمة • ويخرج الى تفسير حياته تفسيرا آخر ، أكثر ائتلافا مع طبيعة المرحلة الفكرية العنيفة الدقيقة التي دفع فيها •

ثم كان المجتمع المصري ـ بعد هذا كله ـ مضطرا أن يستقبل هذا الغزو الفكري المتدافع ، فيستجيب له أو ينازله • ويصور هذه الاستجابات شخصيات تفسر حياتها تفسيرا ايجابيا أو سلبيا ملائما لطبيعة استجابتها • ويمثل ذلك أحفاد (أحمد عبد الجواد) وبعض أبنائه •

ومظاهر الحياة المادية في هذه المرحلة ، تخضع بدورهـا للتطور فتزول أماكن ومـدارس ومقـاه تحت الارض وقصور وطرق وتربيعات وفوانيس • وتنشأ عمارات ضخمة ومقـاه فوق سـطح الارض • وتتوسع الطرق ، وتسطع الكهرباء •

وسـأحاول هنا أن أشير الى بعض مظاهر النمو والتطور في بعض الشخصيات الكبيرة وفي بعض مظاهر الحياة المادية والفكرية •

شخصيات الرواية هي أفراد أسرة (عبد الجواد) المذكورة ، وعلى رأسها رجلها (أحمد بن عبد الجواد) وزوجه (أمينة) ، وأولادهما : فهمي وياسين وكمال وخديجة وعائشة ، والاحفاد : أحمد وعبد المنعم ونعيمة ورضوان وكريمة ، والخادمة الامينة أم حنفي •

هذه هي النماذج الكبيرة • وهناك أقرباء الاسرة وأصدقاؤها : زبيدة وجليلة (العالمتان) خليلتا احمد بن عبـد الجواد • وجميل الحمزاوي وكيـله في المتجر • ومحمد عفت وعلي عبد الرحيم وابراهيم الفا ـ أصدقاؤه المقربون • وزنوبـة العالمـة ، خليلة أحمد عبد الجواد وابنـه ياسين ، ثـم زوجه • وابراهيم شوكت وأخوه خليل زوجا خديجة وعائشة • وعائدة فتاة (كمال) وملاكه •

وتبـدو ـ في الظل ـ شـخصيات أخرى غنية ، تساعد في تطوير الاحداث ، مثل شخصية مريم فتاة فهمي الشهيد في ثورة ١٩ ، ثم زوج ياسين ومطلقته من بعد • وأمهـا اللعوب المستعرة • والشيخ متولي عبد الصمد ، صورة المجتمع المسكين العاجز المتعلق بأهداب الاله • وحسين شـداد ورياض قلدس صديقا كمال • وعبد الرحيم باشا عسيس الزعيم السياسي • وفؤاد حمزاوي صديق كمـال وابن وكيـل ابيـه في المتجر • وسـوسن حماد فتاة أحمد (حفيد ابن عبد الجـواد) وزوجه •

وقد كان تفاعل هذه الشخصيات مع احداث الرواية تفاعلا حارا ، أنمتها ونمت معها ، فتطورت في سلوكها وتفكيرها ومظهرها ، واحتفظت كل منها ـ مع هذا ـ بأصالتها وطعمها الانساني المتميز •

فأما (أحمد بن عبد الجواد) ، فهو – في مطلع الرواية – حوالي عام ١٩١٧ (١) ، رجل شرقي ، حديد الارادة في البيت . يرى من حقه ان يعيش كما يريد . يتسع ضميره لمجالس اللهو والمجون خارج البيت ، حتى اذا عاد ، مع خيوط الفجر الاولى ، انقلب رجلا آخر ، رهيبا شيئا ما ، وقدرا رزينا جبارا . يقول لزوجه : « أنا رجل ، الآمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة . فحاذري أن تدفعيني الى تأديبك » !..

ويسألها عن الاولاد :

« – وكمال ! اياك وأن تتستري على شيطنته !

فتقول زوجه بصوتها الخاشع :

– انه يلتزم أوامر أبيه ! »

فاذا جلس الى الطعام سأل ابنه :

« – غسلت يديك ؟

فاذا أجابه بالايجاب ، قال له آمرا : ارنيهما ! فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا .. »

وكانت سن (احمد عبد الجواد) حينذاك الخامسة والاربعين ، « لم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة » . « لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى » .

فأما الوجه الآخر من حياته ، وجه اللهو والمجون ، فقد بلغت فيه ثقته بنفسه « حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وكياسة ! » . اذا نظر الى المرأة – وهو في بيتها – « جرى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجري الفأر على جوال أرز ليجد لنفسه منفذا » ! ويقول لها : « بجسدي عفاريت من نوع آخر ، لا يجدي معها البخور ! »

ويغيب في مجلس الشراب عن نفسه « فتهفو اليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة .. »

ثم تتابع الاحداث ، وتشب ثورة ١٩ ، ويستشهد فهمي ابنه ، فينقطع (احمد عبد الجواد) عن اللهو والشراب خمس سنين . ويعمل في جسمه الالم . ولكن الانطلاق خط أصيل من خطوط شخصيته . فاذا دعاه أصدقاؤه القدامى الى ليلة مجون ، استجاب لهم على استحياء ولكن .. لقد سار به قطار الزمن شوطا طويلا ، فاذا وضعه ، وضعه في غير المحطة التي وقف عندها :

(١) وقد أعطى الكاتب هذا الخط الزمني في عفوية ومهارة رائعتين في حوار البطل لنفسه .

قالت سلطانة في تعليل غيبته :

« – بدا لي أنه ربما كان حصل عنده ضعف مما يدرك الكهول أمثاله ، فاعتل بالحزن واختفى !.. »

ثم بدأ يميل الى بنت أخت خليلته زبيدة ، كأنما يريد أن يشرد بها أيامه الشابة ، فهو يخاطبها ذاكرا أيامه الاولى :

« – تلك أيام خلت ، ما الطفها ! كنت طفلة ! » . وقد كانت هذه الصغيرة عنده في مقام الجارية ، فهي « احتياطي لا بأس به ، يرجع اليه عند الضرورة » . وهو « لو أشار اليها باصبعه ، لطارت اليه ولزقت فيه بالغرا ! »

ولكن الجارية الصغيرة ، تعرض عن احمد عبد الجواد وتعده ! وتقول له « بصوت ضاحك :

– هل تقرأ الكف يا سيدنا الشيخ ؟ » .

ويقول لها :

« – يابنت الحلال ! لا تضيعي الوقت الغالي في الكلام .

فتجيبه وهي تهز رأسها في زهد ودلال :

– بل قل لا تضيعي الوقت الغالي مع الكهول ! »

ثم لا تستجيب له حتى يعدها بشراء ذهبية على النيل لسكناها ، عدا النفقات الاخرى !.. بل كادت تدفع به يوما – في سبيل أن تلين – الى أن يرتكب الزواج منها ! تلك أسهم الشيوخ في سباق القلوب !..

فأما في البيت ، فقد انتقل الدور الاعلى جميعه الى الدور الاول تيسيرا له ، لان قلبه « لم يعد يسعفه على ارتقاء السلم العالي » . وهو اذا تبع زوجه ، تبعها « في هالة من وقار الشيخوخة » . وأصبح « جو السلم شديد الرطوبة » « فما العن الشتاء ! »

وقد رد زوجه يوما الى أهلها ، لانها زارت الحسين في غيبته . ولكنه الآن يقول لها :

« – أراهن على أنك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد ! »

ويخاطب ابنه كمالا ، بقوله :

« – أين كنت يا أستاذ ! »

« وكان كمال يحب هذه اللهجة الودية اللطيفة ، التي لم يحظ بها الا بعد عمر طويل .. » . ولكن « ليس مما يهون أن يرى أباه في وهنه بعد سطوة وجبروت!..».

ثم انتهى الى ألا يتجاوز حدود عالمه أطراف الحشية :

عليها « يرقد نهارا وينام ليلا ويتناول طعامه ، ويقضي حاجته ! » • « وفي هذا البيت الذي استكان عمره لارادته المطلقة ، غدا ينظر فلا يلقى الا نظرات الرثاء ، أو يرجو فيعاتب كالاطفال !•• » • « ولما ذهب الاصدقاء ، اتخذ الرجل من كمال صديقا • ولعله فاجأه بصداقته • لم يعد الاب الذي عهده ، وغدا صديقا يناجيه ، ويتشوق الى مناجاته •• » •

هذا (كمال) الذي كان يرتجف من أبيه فرقا !

وأما أمينة زوج أحمد عبد الجواد ، فقد بدأت الرواية وهي في الاربعين ، « تبدو كالنحيفة • ولكن جسمها بض ممتلىء في حدوده الضيقة ، لطيف التنسيق والتبويب » • ثم قاربت الستين « فجف عودها،واشتعل رأسها شيبا ، وبدت أكبر من ذلك بعشر » •

على أن النمو الذي نحسه في شخصيتي الاب والام هينا بسيطا ، لاننا عرفناهما بعد أن يبس عودهما ، نجده رائعا بعيد المدى في شخصيات الرواية الفتية التي نصاحبها : فكمال ، فتى الاسرة الصغير ، عشيق الحسين ، اجتاز تجارب فكرية وعاطفية قاسية ، حتى هرب من الحياة الى مكتبه وكتبه وابحاثه ، فأضاع ايمانه بالحياة ، وأرهف شكه في قيمها جميعا •

ونشهده في آخر الرواية رجلا في الاربعين ، سعى الشيب اليه ، مخفق الحب ، تائه الهدف ، ضائع النفس ، لا يكاد يؤمن بشيء !

★ ★ ★

فأما تطور الحياة في الرواية ، فتعبر عنه الاحداث النامية ، المتعاقبة : الاحداث السياسية : ثورات ، مظاهرات ، مفاوضات ، حرب عالمية ، غارات ، مفاجآت حربية •

والاحداث الاجتماعية : افلاس اسرة شداد بعد جاه وعز ، ارتقاء اسرة حمزاوي بعد ضعة ، أفول نجم مطربات والتماع نجم مطربات أخريات ، اضطرام الاوساط الشعبية بتأثرها بالاحداث السياسية • والاحداث النفسية : تجربة ياسين المريرة في أمه الخاطئة ، احقاق كمال في حبه عائدة ، نجاح رضوان في حياته ، انتهاء عميد الاسرة الى التفكير بالزواج من عالمته ! ، زواج ياسين من خليلته وخليلة أبيه ، وصول ياسين الى أم زوجه (مريم) ، ضياع معنى قبر الحسين في نفس كمال، كشف الاولاد عن واقع الاب في مجونه ولهوه ، وازدواج شخصيته •• والاحداث الفكرية : الغزو الفكري الاوروبي، اعتناق احمد للماركسية ، نشوء فكرة الاخوان المسلمين، نضج شخصيات الرواية المتأخرة ، ووصولها الى تفسير حياتها تفسيرا ايجابيا سليما ، ضياع ايمان كمال « نموذج الامة الحائرة الهاربة ، الشاكسة في كل شيء » •

والاحياء المادية : تغير معالم الاحياء والقصور ، ومظاهر الشخصيات •

★ ★ ★

فنحن نرى أن التفاعل الذي تم بين الشخصيات والاحداث ومظاهر الحياة كلها في الرواية نشأ عنه نمو حقيقي حي ، بحيث أصبح كل جيل من أجيال الاسرة (أسرة عبد الجواد) يتميز من سابقه ولاحقه ، فتتحدد له خصائص شاخصة في الفكر والوجدان والسلوك والمظهر • وقد كان التعبير الذي اختاره الكاتب عن هذا التميز تفرق هذه الاجيال في (بين القصرين) و (قصر الشوق) و (السكرية) وهي الاحياء التي توزعها أفراد الاسرة النامية •

ومن هنا تعد ثلاثية نجيب محفوظ وثيقة تاريخية حية تصور مرحلة طويلة من عمر المجتمع المصري ، بما قام في هذه المرحلة من تطور ونمو شملا الحياة والاحياء ، الى جانب قيمتها الادبية البالغة •

وما أعرف حسا ألزم للروائي من حس النمو الزمني الذي يرصد مظاهر التطور والتكامل ويكسوها لحما وعصبا من لحم أبطاله وعصبهم حتى كأنه يعيد دورة الحياة من جديد في مظاهرها المتشابكة بحيث يتصل الاحياء بالاموات وتنحسر الساعة القائمة عن أعمار سابقة وتشف عن أعمار لاحقة •

ومن هنا تكون حياة الرواية ووعيها لواقعها وقدرتها على تصويره وتتبع أصوله وفروعه وتذوق نسغ الحياة فيه •

وقد اتيح ذلك لنجيب محفوظ في الثلاثية على أروع مثال •

القاهرة ١ـ٤ـ١٩٦١ **عبد الكريم الاشتر**

المتيمون

قصة بقلم : فارس زرزور

في الحارات القديمة ، يعيش الناس كما يعيش الآخرون ٠ دونما فارق في الامور الحياتية الاساسية ، فهم يحلقون رؤوسهم ويعشقون ويحلمون ، ولا يختلفون عنهم الا في الحالات الثانوية جدا ، كطريقة التفكير ، وتناول الغذاء ، والاسباب التي تؤدي الى الموت ٠ أما النتائج فهي واحدة على الدوام ، الرضاء التام ، ثم العودة الى الله ٠٠

والى جانب بضع عبارات ، لطخ بها جدار ترابي بدهان يبدأوردياوينتهي لازورديا ٠٠ يفهم منها الحصيف انها تعني حلاقة ، وتطهير اولاد ، وفتح كي ٠٠ وخلافه ٠ الى جانب هذه العبارات ، شق لنفسه حاجز منخلي ـ يمنع دخول الحشرات ـ فجوة كبيرة وسط الجدار ، وفي داخل هذه الفجوة ، عشش صاحب الاعلان المذكور أعلاه ٠ واتخذ لنفسه صانعا وأجيرا ، للمساعدة في الاعمال التي تتطلبه أشغاله العتيدة ٠

وقداشترط المعلم منذ البداية على معاونيه ـ وهذه ملاحظة هامة ـ انه سوف لا يمنحهما اجرا على أعمالهما ، لسببين ، اولهما انهما سيتعلمان الصنعة ـ وصنعة في اليد امان من الفقر ـ والسبب الثاني وهو مادي بحت ، ان زبائن المحل وان تخلوا عن سائر الصفات الحميدة ، فهم لا يتخلونعنصفةالكرم ، أي انهم يدفعون البخشيش دون تردد ٠ أما اذا وصف المحل من الداخل ، فيختلط الامر ، وتضيع أهم ميزاته ، وهي كونه (صالون حلاق) ٠٠ عفوا ٠٠

وذات يوم انتهى الحلاق لتوه من قلع شعر أحد زبائنه ثم عاجله بالتهنئة التقليدية ٠

ـ نعيما

وارتعد الزبون ـ يبدو انه لا يتحلى بأيصفةحميدة على الاطلاق ـ وفكر كم ستكلفني هذه الكلمة ٠٠

ـ الله ينعم عليك ٠

وصرخ الاجير من احدى الزوايا ، بصوتهالثاقب٠٠

ـ نعيما

وهز الزبون رأسه ٠ فهمت ، وأجاب بالنفي ٠٠

ـ الله ينعم عليك

وعاجله الصانع بالضربة القاضية ٠٠

ـ نعيما

فاجفل ٠٠ من أين برز هذا الشيطان الجديد ؟٠ وأجاب مؤكدا عدم موافقته ٠٠

ـ الله ينعم عليكم أجمعين ٠٠

وانقض على المنخل ، وانطلق بسرعة وكأنه عصفور أطلق من قفص ، وتنفس بارتياح ، مالئا رئتيه بالهواء النقي ، الهواء الذي لا رائحة له ، بعد ان حطمت دماغه رائحة الصالون المؤلفة من كوكتيل غريب ، ممزوج بجميع الروائح المتباينة ٠ انطلق من الدكان قبل ان يتناوله الاجير لينظف له طربوشه المزفت ، وسبق الصانع الى السترة المعلقة فانتشلها من أحد المسامير ، وقد سمع بأذنه صوت فتقها بينا واضحا ، وفر لا يلوي على شيء ٠٠ وان كان قد احس بوضوحانهمطارد بعيون، ونيات غير طيبة ، بأية حال ٠٠ ووقف على بعد عشر خطوات من باب الدكان فوضع سترته على كتفه وبدأ بحملة تنظيف واسعة النطاق ٠

قبض على الطربوش باليد اليسرى ، وانهال عليه بالكم الايمن مسحا وتنظيفا ، وبين آونة وأخرى ، كان يضم شفتيه ثم ينفخ نفخة كبيرة ، فيتطاير الغبار كثيفا ، ثم لا يلبث أن يعود أدراجه على الطربوش والسترة والرأس المحلوق ٠٠

ثم قربه من عينيه ، بحركة لا ارادية ، فالفى بقعة سوداء تلطخ جانبا كبيرا من زيقه ، فراح يحكها باظافره بهدوء ، خوفا من ان تبرز أصابعه من جلدته الكالحة ، وبهت لون البقعة قليلا ، ولكنها ظلت حية ترزق ، واسترعى انتباهه منظر الطرة المنكشة ، من فرط القدم٠ فأخذ يواسيها بين أنامله برفق فكانت تمتد قليلا ، ثم تتقلص دفعة واحدة ، وود لو يطوي طربوشه في جيبه ، ويرتاح منه الى الابد ، ولكن برودة الجو التي انسابت الى رأسه في تلك اللحظة ، جعلته يؤخر هذا الحديث التاريخي الى اشعار آخر ٠ ومهد الطرة مرة أخيرة ، فتناثرت خيوطها بين أصابعه ـ نرفز ـ فلوى رأسه قليلا ، وبان الكدر جليا على سحنته الحديثة التصليح ٠ وكاد يعيد الطربوش على رأسه ، لولا ان لمح أحد أركانه قد تقوض ، وان سطحه امتلأ بالوهاد ، فأدخل اليه قبضته ، ودفعه دفعتين رفيقتين ، فاستقام قليلا غير انه حكم عليه حكما صارما ـ لم يعد هذا الطربوش يصلح

الا للشغل . لا بأس .. ووضعه على رأسه كيفما اتفق ثم أعاد توازنه من جديد .

وجاء دور السترة ، فتناولها من على كتفه ، واخذ يتأملها باشمئزاز غريب !. هذه سترته وهو يرتديها منذ الازل ، فماذا حدث .! ما هذا الاشمئزاز..وسحنته في هذه الآونة لا تقبل أي تعبير لا يتصف بالرضى .. وأي تعبير آخر معاكس يجعله يبدو ـ وهذا أمر مؤسف جدا ـ كأنه لم يحلق . المهم .. انه احتار من أين يبدأ بالتنظيف ، واختصر الطريق ، متخذا أهون السبل ، فقبض عليها من الكتفين هكذا .. يمكنك ان تتصور ذلك ـ ورفعها عاليا ثم هوى بها من قمة رأسه ، فلم يعد يرى شيئا مما حوله ، فقد حجبته عن المرئيات ـ على قلتها في هذه الحارة ـ لجج من الغبار النقي ـ غبار نقي .؟ لا يهم .. واعاد الكرة بين رفع وخفض . ثم توقف على حين غرة ، حين اصطدمت السترة بالعمود ، فكسر نصف احد الازرار ، وبقي النصف الآخر معلقا بها .. ولوح بها ـ أخيرا ـ في الهواء ، فاستقرت على كتفه ، وأدخل يده في الكم ، فلم يبرز منها غير ثلاث أصابع ، وظهر الضيق على سحنته من جديد ـ سبحان الله ـ قلنا ان غير الرضى لا يليق الآن على سحنته ولكن ما العمل .! ـ وسحب يده بعنف ـ النرفزة مرة أخرى ـ ثم ادخلها بهدوء محاذرا ان تدلف بين البطانة والقماش، وفي هذه اللحظة سمع صوتا يناديه

ـ نعيما يا أخانا .! ألا تزال هنا ؟

وارتبك الزبون ـ حتى الارتباك يجعل سحنته في هذه الآونة تعبر عن شيء آخر يصعب وصفه ـ وأجاب متضاحكا ، وقد بدا وجهه كقطعة قماش مكوية بعد الرفو ..

ـ والله اني انتظر أخي ..

وأجاب الصانع وكان قد خرج لامر ما ولعله الحصول على البخشيش ـ يبدو انه كثير التفاؤل ـ

ـ أخوك .. هل لك أخ ..؟
فاستدرك الشاب معتذرا

ـ آه أخي ..؟ لا .. قلت ابن عمي . لماذا تضحك ..؟

وأجاب الصانع بخبث .

ـ لا .. لا شيء .. فقط ضع طرة الطربوش الى الخلف ..

ورجع الصانع تاركا الشاب يلعن حظه التعس ، الذي أبى الا أن يجعله هدفا للهزء والسخرية . لقد ذهبت جهوده التي بذلها أدراج الرياح ، وخطته التي صاغها بدقة واحكام فشلت فشلا ذريعا .. فمنذ أن بدأ الحلاق يضع الصابون على وجهه ، راح يتأمل السترة في المرآة ويفتش عن الطريقة التي سيتناولها بها قبل ان يسبقه اليها الاجير . كان يخشى الفرشاة اللعينة خشية كبرى ، التي ما ان تمس ثيابه بعد الحلاقة حتى تكلفه المبلغ المرقوم ، عدا عن خوفه على عيون الزبائن وانوفهم من الغبار المعشش في خيوطها .. كما أخذ من خلال المرآة يتأمل الطربوش بانتباه وترقب فارضا كل الاحتمالات .. سأتناول السترة باليد اليمنى والطربوش باليسرى .. ـ هكذا كان يفكر ـ وقد اغتبط كثيرا عندما ذهب الاجير في مهمة مما ساعده على امكانية تنفيذ خططه كلها بدقة واتقان . ولكن .. يا للاسف .. ما كادت تنتهي الحلاقة ، ويتناول الحلاق زجاجة الكلونيا .. حتى حضر الاجير .. وتأهب الصانع وعاجله الاثنان بضربتين متلاحقتين .

ـ نعيما .. نعيما ..

وبعد ان صم أذنيه ، وانهزم شر هزيمة يكتشف أمره ويسخر منه ومن بخله الشنيع ..

معليش ، سوف لن أحلق هنا مرة أخرى وسوف تطوى هذه القضية من أساسها ولن يذكرها أحد .. ـ هكذا فكر مواسيا نفسه ـ وتردد قليلا قبل ان يلتفت حوله بارتباك ثم سار في طريقه .. وتحسس ذقنه مزيلا عنها بقايا قطنة دامية ، ثم شد سترته الى الاسفل برفق كيلا تتفتت خيوطها . وتسللت يده الى جيبه بهدوء وعبث بشيء ما ، اعاد الى تقاطيع وجهه علائم الارتياح .. وفكر ، لقد وفرت من البخشيش حوالي ربع ليرة ، ان النقود الآن تكفي ولا شك .. سأجعلها تعشقني عشقا .. ستعبدني .. آه .. يا محبوبتي الصغيرة .. ماذا تفعلين الآن ..؟ انتظري قليلا .. سأصل اليك .. لا .. لن أتأخر .. وخفق قلبه فجأة .. وعربد عربدة صاخبة ، لا شك انها تسكن قلبه ، لماذا اذن حاولت ان تهرب منه ؟ لقد اهتز بين حناياه لمجرد ذكرها .. سعاد .. ! آه ما أجمل هذا الاسم .. ! سعاد.. سعاد..

كان يوما مشهودا في حياة قلبه . ذلك اليوم الذي تعرف فيه عليها .. هذا القلب الذي لم يخفق في حياته لسبب ما غير الجوع والتعب ..

في ذلك اليوم كان عائدا من عمله في معمل الكبريت حيث يشتغل من الصباح حتى المساء ، وعندما وصل الى البيت وكان يلج الباب المتداعي ، رآها .. رأى النور ..

وأحس بالحياة ٠٠ رآهـا تخرج من بيته تجر وراءهـا ضفائر شعرها الفاحم ، وفي يدها شيء مـا لـم يلفت انتباهه ٠٠ فقط سحرته اليد التي تحمله ٠٠ ومن اليد انتقلت عيناه بسرعـة خاطفـة الى الوجه المتضرج كلون البرتقال ٠٠ يا لله ما أجمل الاسنان التي انفرجت عنها شفتاها الكرزيتان ٠! واصطدم بالعتبة وكاد يهوي على وجهه لولا أن تدارك الامر في آخر لحظة وتشبث بحلقة الباب ٠٠

وسألته أمه ما الخبر ٠؟ لقد رأت وجهه متهللا مستبشرا ٠

ــ مـاذا ٠٠ هل ازداد أجرك ٠٠ أم ان هنـاك علاوة ٠٠

هكذا سألته بتعبيرها الخاص ٠٠ ولم تطل فرحة الام عندما بدأ يسألها عن الفتاة ٠ وعرفت ان أسباب البشر لم تكن غـير نظرة واحـدة الى وجه ابنة الجيران الجدد ٠٠

وبدأت منذ ذلـك اليـوم حياتـه تسير على منوال آخر ٠٠ ففي اليـوم التالي تربص لهـا طيلة المساء ــ والسهرة ــ حتى يقول لها مساء الخير ، وفي صباح اليوم التالي تأخر عن موعده ربع سـاعة لكي يحمل عنهـا ، صحن فول مدمس ، وتعمد أن يمس يدها ٠ يقولون ان للكهرباء مفعولا مزعجا ٠! من قال هذا ٠! ان للمس يدها فعل الكهرباء ٠٠ صحيح ٠! ولكن ما أحلاه ٠! انه يجعل الـدم والقلب والروح كل هـذه الاشياء الرومانطيقية تضطرب اضطرابا لذيـذا جدا ٠٠ اضطرابا مميتا من اللذة ٠٠

ولـم ينم تلك الليلة ، ظلت الكهربـاء تسري في عروقه ٠ ورائحة زيت الشعر تزكم انفه ، منذ فاحت رائحته من شعرها المصفف اللامع ٠٠

انه لم ير الحب في حياته كلها ٠٠ في الربع قرن الذي عاشه ٠٠ لـم يجرب ان يسير مـع فتاة غريبة او قريبة ٠٠ انه لم يستشعر حتى الآن هذه اللذة ٠٠ التي طالمـا منى نفسـه بتحقيقها مـع أي مخلوقة ولو كانت الشيطان ٠٠

ولكن هذا اليوم ستحقق أمانيه كلها ٠٠ قالت له بعد ان تمت مراحل الحب جميعها ٠٠ النظرة ، فالابتسامة فالسلام ، فالكلام ٠٠ قالت له انها تشتهي ان تذهب الى السينما ٠٠ وسيأخذها هذا اليوم ٠٠ سيأخذها لترى صباح تغني وتحيـه ترقص ٠٠ وراح يتصور بخيالـه الذي أفلت من عقاله ، كيف سيسير معها جنبا الى جنب ، وسيفقأ عين كل من سيتعرض لها بكلمـة ، وليكن من يكون ٠٠ وبينما كان يسير وهو يجتر أحلامه بهناء ، طرأت له فكرة مفاجئة ، ماذا لو لم يتحقق أمله لسبب ما ٠٠ كأن تعتذر في آخر لحظة ، او يمنعها أهلها عن الذهاب ٠٠ آه ما أقسى الصدمة ٠! ٠

وهـو لاول مـرة يحب ٠٠ كباقي النـاس الذين يسكنون في الحارات الجديدة ، وفي العمارات ٠٠ اليس له قلب ٠٠ ودم ٠٠ وبقية الاشياء الاخرى ٠؟ هذه المواد الاولية اللازمة لتركيب هذا المفعول السحري العجيب ٠٠

انها تحبه ولا شك ٠٠ ان لها نفس التركيب قلب ودم وصدر وعروق وشرايين والى آخره ٠٠ وهي بالاضافة الى ذلك ، من سكان الحارات العتيقة ، الذين لا يأنفون من واقعهم المألوف ٠٠ سيذهبان هذا المساء الى السينما وفي الظلام ستتلاقى أيديهما مصادفة ٠ وستعود الكهرباء الى الجري في عروقهما ٠٠

ووصل الى حارته ومر بأحد الجيران فسأله عن الساعة ٠٠ وقدر له جاره الساعة الخامسة تقريبا ٠٠

لقد حان الوقت ٠٠ ولاول مرة في حياته راح يحصي الدقائق وكانت ساعته الناطقة تنبض بعنف ٠٠ ومـا حدث بعد ذلك بعد ساعتين او ثلاث ساعات من الانتظار القاسي المرير ، الانتظار الذي لا طائل وراءه ان عاد الى البيت فالفى الحجرة الوحيدة التي يقطنها مع أمه تسبح في الظلام ٠٠ ــ أين انت ايتها العجوز ــ٠؟

وأجابه صوت في احدى الزوايا ٠٠ وكأنه صوت من الماضي السحيق ٠٠

ــ انني هنا ياولدي أرتق لك جوربك ٠٠

وأجابها ساخطا

ــ انني لا أرى شـيئا ٠٠ فكيف ترين في هـذا الظلام ، فأجابه الصوت ٠٠

ــ ان الفانوس معلق يا ولدي ٠٠ هل لديك عود ثقـاب ٠٠

فأجاب الابن بعصبية

ــ دائمـا الثقـاب ٠٠ الثقـاب ٠٠ أيـن تذهبين بالكبريت ٠٠ هل تبيعينه ٠؟

ورد الصوت بحنان متناه ٠٠

ــ انني أشم فيك رائحة جميلة يا ولدي ٠٠ آه لقـد ذكرتني يوم كان أبوك رحمه الله ٠٠ وفتحت الام فمها وراحت تتحدث عن حبها الاول ٠٠ كيف تعرفت على والده ٠٠ وكيف احبها واحبته ٠٠ ووخزت الابرة يدها ٠٠ فتوقفت قليلا عن الكلام ٠٠ ثم تابعت ٠٠ كان يقول لي ياضيا عيني ٠٠ وظلت تثرثر ٠٠ والمتيم المسكين يشد ذقنه الناعمة بغيظ والم ٠٠ ومن حوله كان كل شيء حالكا حتى نفسه ٠٠ فقد لفها ظلام دامس ٠٠

بعض قضايا النقد الفني

بقلم : نجاة قصاب حسن

في رواية « أيها الكاذب العزيز » التي مثلتها المسارح الامريكية والانكليزية والفرنسية ، لا تجد سوى ممثلين اثنين ، أحدهما في دور جورج برنار شو ، والثاني ـ أو الثانية ـ في دور المسز كامبل ، تلك التي كانت في زمنها أشهر ممثلة عرفتها مسارح لندن ونيويورك . وكان الاثنان ـ الحقيقيان لا الممثلان في دوريهما ـ قد ارتبطا في حياتهما المديدة بأغرب رابطة عشق ، عشق بالمراسلة من النوع الذي لا يحسنه سوى برنار شو النباتي في جميع أنظمته الغذائية . والرسائل التي تبادلاها وكانت جملها هي المسرحية تكشف لاول مرة ، وعند امرأة ، فكرا أشد حموضة ولذعا من فكر الساخر الايرلندي الكبير .

المهم ، يفتتح شو كلامه بقوله : « عمري الآن واحد وأربعون سنة . أعمل ناقدا للموسيقا والادب ، وقد جربت حتى الآن عددا من المسرحيات ولكنها فشلت .. »

فالى بعض نقادنا الذين لم يجاوزوا العشرين ، وليس فيهم بوادر من عمق شو ونجابته ، وليس فيهم من الناقد صدقه ، أهدي هذا المقال ، واستكثر عليهم عنوان المسرحية كله ، فلا أقول لواحدهم مثلا : « أيها الكاذب العزيز .. »

« ن »

من هو الناقد ؟ ما طاقته وما حدوده ؟

يقول بنديتو كروتشه في (المجمل في فلسفة الفن) ـ ص ١٠٤ تعريب الاستاذ سامي الدروبي : « ينظر الفنانون في أغلب الاحيان الى النقد الادبي والفني نظرتهم الى مرب صعب المراس طاغية ، يصدر اوامر غريبة فيمنع شيئا ويسوغ آخر . ولذلك ترى الفنانين اما منحازين اليه يتملقونه ولو كانوا في قرارتهم يكرهونه ، واما ثائرين عليه ويشبهونه بحمار دخل الى دكان خزاف وأخذ يحطم الآثار الفنية المرهفة . والواقع ان الفنانين مخطئون لا يعرفون ما هو النقد فينتظرون منه نعما ليس أهلا لان يجود بها ويخافون منه أذى ليس أهلا لتوقيعه . فما دام لا يسع أي ناقد أن يخلق فنانا من انسان غير فنان ، فكذلك ليس في وسع أي ناقد أبدا ، نتيجة لاستحالة ميتافزيقية ، أن يهدم أو يصرع فنانا حقيقيا ولا أن يمسه بسوء خفيف . فما عرف في التاريخ أن قد حصل شيء من هذا قط ، ولا حصل في أيامنا هذه ، ونحن على أتم اليقين من أنه لن يحصل في المستقبل .

على أن النقاد ، أو من يسمون أنفسهم نقادا ، هم الذين يخطئون كذلك اذ يتخذون بالفعل موقف المربين والمشرفين والمشرعين والرسل ، فيوحون الى الفنانين ان افعلوا هذا ولا تفعلوا ذاك ، ويحددون لهم مواضيعهم ، ويلومون لوتاس لانه لم يكن اريوست ، ودانزيو لانه لم يكن برشيه او فراجاكوبون ، ويحددون كيف سيكون أديب المستقبل ويقدمون له كل ما يحتاج اليه في رأيهم من اخلاق وفلسفة وتاريخ ولغة وعروض ووسائل تصوير وأساليب عماره .. الخ . واضح في هذه الحالات ان الخطأ خطأ الناقد وان الفنانين على حق اذ يعاملون هذا الحيوان المرعب معاملتهم للحيوانات فيحاولون ان يؤنسوه أو يسلوه أو يخدعوه حتى يستفيدوا منه ، أو يطردوه ويصرعوه اذا لم يأنسوا في أنفسهم القدرة على تحمل مثل هذا الهوان .. »

« وهناك رأي آخر في النقد يعتبر الناقد حاكما أو قاضيا ، لا يسند اليه واجب اثارة الحياة الفنانية وتوجيهها وارشادها لان هذه الحياة انما يثيرها ويوجهها التاريخ وحده ، بل يسند اليه فقط واجب التمييز في الفن الذي تحقق ، بين الجميل والقبيح ، فيقدس الجميل ويجحد القبيح بأحكام صارمة منصفة معا .. ان النقد اذا اعتبرناه قاضيا انما يحكم بالاعدام على أموات وينفخ الحياة في احياء ، ظانا أن لهاته هو نسمة الله التي تحيي الموتى . »

« وثمة رأي ثالث في النقد ، هو اعتباره تأويلا وشرحا تقصر مهمته على أن ينفض الغبار عن الآثار الفنية ويخرجها الى النور . انه يزودنا بمعلومات وتفسيرات تتعلق بالاثر الفني ثم يدع الفن يفعل فعله بطريقة عفوية في قلب المتأمل والقارىء ليحكما بما يوحي به الذوق الداخلي . ويكون الناقد في هذه الحالة أشبه بشيشرون مثقف أو معلم صابر فطن ، حتى لقد عرف أحد النقاد

المشهورين النقد بأنه فن تعليم القراءة ، وبأن الناقد كالدليل » .

« أما أنا فأراه الثلاثة معا .. المعلم والقاضي والدليل » انتهى كلام كروتشه .

وانني لاتساءل أين موقع النقد الفني في بلادنا من هذا كله ؟ والجواب ان الرجال لا ينبتون قبل الحاجة اليهم . ليس هناك من يسبق عصره بالمعنى الصحيح للكلمة . هناك أشخاص يحسون حاجة المجتمع الى الجديد قبل احساس عامة أبناء المجتمع به ، فاذا بشروا بهذا الجديد قيل انهم سبقوا عصرهم . والحق انهم سبقوا عامة الناس في ادراك الحاجة ولكنهم لم يسبقوا الحاجة نفسها اذ ليس هناك من قضية تطرح قبل أن يكون قد آن لها أن تطرح . وعلى هذا فالنقاد الحقيقيون بدأوا ينبتون في بلادنا مع ظهور الحركة الفنية الحقيقية ، وبقدر ما تغتني هذه الحركة ويعمق محتواها يظهر النقاد المناسبون لها وتغتني تجاربهم وتعمق نظرتهم الى الفن . والنقاد بدأوا ينبتون على الطرق الثلاثة التي بينها كروتشي ، فمنهم من ينصب نفسه معلما ومنهم من يجعل نفسه قاضيا ومنهم الدليل الشارح . أما الثلاثة معا فلم يجتمعوا في شخص واحد مكتمل لان طاقة الحياة الفنية في بلادنا لم تتح لهذا الشخص – المحتمل وجوده الآن – أن تكتمل له التجربة الانسانية العميقة في مضمار الفن .

صفات الناقد

ومثل هذا الناقد ، كما اوضح كروتشه ، يجب أن يكون عميق الاطلاع على تاريخ الفن واتجاهاته ، بصيرا بخطوط المستقبل ، على درجة كافية من العلم تجعله لا يستعجل الحكم ولا يسد على الجديد سبله ومسالكه . ويقينا ان هذا يفرض شيئين معا : الثقافة والسن . فالثقافة هي تمثل تجارب الآخرين ، والمثقف الذي قرأ الف كتاب قد أحاط بشيء من تجربة الف مؤلف ، فكأنه ألف رجل أو – بكثير من التواضع – عشرة رجال أذكياء من عيار المؤلفين . ولكن تمثل ألف كتاب ، ولا أقول قراءتها ، لا يكون بالزمن الكافي لتصفحها وهو قريب من خمس سنوات . انه لا يكون الا بالزمن الكافي لانضاجها . واذا كان هناك فنانون لمعوا وهم شباب فان النقاد الكبار لم يتح لهم أن يحصلوا على سمعتهم ويوطدوها قبل ان يجاوزوا سن التعجل في الحكم .

ومسألة السن هذه مسألة خطيرة في كل شيء . ان القضاء ، وهو تملك الحق في الاشراف على حرية الناس وأموالهم وأحوالهم الشخصية ، لا يسلم الا الى ناضج في السن بالاضافة الى نضوج تجربته ، فالسن يهدىء الاندفاعات المشبوبة ، ويرجع الامور من السطح الى الاعماق . وفي كثير من الدساتير والقوانين يحدد للمراكز المسؤولة سن تناسبها . ومن الواضح أن الحكم على الاتجاهات الفنية وتملك الحق في تسفيه الفنان أو تلميع شهرته نوع من القضاء لا يقل خطورة عن القضاء بين الناس في أمور أموالهم وحرياتهم وأحوالهم الشخصية . ولذا فما ترسخ قدم الناقد الا اذا اجتمعت له الحسنيان، الثقافة والسن معا .

واذ أعلي شأن هذين العنصرين ، الثقافة والسن ، لا أجعلهما مطلقين ولا وحيدين . فالثقافة يجب ان تكون عامة وخاصة . وقديما عرفوا المثقف بأنه الذي « يعرف شيئا عن كل شيء ، وكل شيء عن شيء واحد » . ويقول كروتشه (الصفحة ١٢٦) : ان نقد الفن حين يكون فنيا حقا أو تاريخيا حقا ، يتسع في الوقت نفسه ويصبح نقدا للحياة ، لانه لا يستطيع ان يحكم على الآثار الفنية أي أن يحدد لها خصائصها بدون أن يحكم في الوقت نفسه على آثار الحياة بكاملها ويحدد لكل منها خاصة ما . ويلاحظ هذا لدى النقاد الكبار حقا ، وخاصة لدى دي سانكتيس في كتبه . فانه لا يقل عمقا ، من حيث هو ناقد فني ، عنه من حيث هو ناقد فلسفي ، اخلاقي ، سياسي . وما كان ليتمتع بهذه الدرجة من العمق في النقد الفني الا لانه يتمتع بها في الفروع الاخرى من النقد . وعكس هذا صحيح . فالقوة التي يظهرها في طريقته الخالصة في النظر الى الفن فنيا ، هي القوة التي يظهرها في طريقته الخالصة في النظر الى الاخلاق أخلاقيا والى الفلسفة منطقيا وهكذا دواليك . ذلك ان ضروب الفكر التي يستخدمها النقد كضروب من الحكم ، يمكن ان تميز في الوحدة تمييزا شافيا ، الا انها لا يمكن ان تفصل بعضها عن بعض وان تفصل عن الوحدة فصلا ماديا الا اذا أريد لها ان تجف دفعة واحدة وتموت . والتمييز الذي يقيمونه عادة بين نقد الفن وسائر ضروب النقد الاخرى ليس اذن سوى اشارة الى ان انتباه المؤلف أو الكاتب متجه الى جانب دون آخر من جانبي المضمون الواحد غير المنقسم . ان تاريخ الفن لا يمكن ان نفصله عن تاريخ الحضارة الانسانية كاملا » .

وكل هذا رفيق العمر الذي اذا أحسن استخدامه أنضج الاحكام وجعلها تسمو عن الوقوع في الخطأ ، والوقوع في التسرع ، والوقوع في التحيز الناشيء عن عدم القدرة على اكتناه الاشياء .

أين نحن من هذا ؟

مرة أخرى أقول بأن النقاد الحقيقيين بدأوا يتكونون في بلادنا مع نمو النهضة الفنية من جهة ، ومع رجوع أفواج من المثقفين ثقافة فنية عميقة حصلوا عليها من دراساتهم في أوروبا على فنون عريقة الماضي غنية الحاضر متشعبة المسالك في دروب المستقبل .

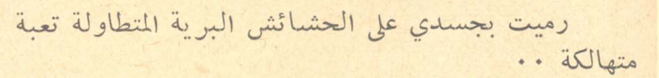
على أن وجه النقد الفني يعيبه في بلادنا ـ كما هو الشأن في البلاد الاخرى ـ وجود فئة صغيرة من صغار كتاب الجرائد ، الصغار سنا والصغار ثقافة وتجربة ٠ وحين يتصدى الى الحكم على الآثار الفنية من سنه دون العشرين أحيانا ، ودون الخامسة والعشرين أحيانا أخرى ، ومن ثقافته لا تتعدى الشهادة الابتدائية او شهادة الكفاءة العامة ، ومن لا يحسن من اللغات الاجنبية أية لغة ، ومن لم يذهب الى اوروبا ليعوض باتساع الحركة الفنية فيها ضيق ما يشاهد هنا من الآثار الفنية ، حين يتصدى للحكم والنقد أمثال هؤلاء يكون طبيعيا أن يعوضوا عن فقر الثقافة والتجربة بالتهجم الاهوج ٠ ومثل هؤلاء يمكن أن يمر الانسان بهم مر الكريم المتناسي لولا أننا في وقت نباشر فيه بناء النهضة الفنية ٠

نحن أمة اكتهلت تجاربها في الكفاح السياسي بعد ان ابتلينا بالحكم الاجنبي مئات سنين حفلت بالكفاح حتى التحرر ، وابتلينا بمحاولات ضارية لاعادة الحكم الاجنبي بشكل من الاشكال ٠ ولما كانت الوظيفة تقوي العضو ، فان جانب الحذر السياسي نما عندنا حتى لم تعد تنطلي على رجل الشارع أذكى الدعايات وأنفذها ٠ على أننا في كفاحنا لبناء الامة روحيا لا نزال في أول الطريق ٠ عمر استقلالنا خمس عشرة سنة مليئة بالمصاعب ، وعمر وحدتنا ثلاث سنوات ٠ ولما كان البناء الروحي في حاجة الى المزيد من التبصر والتأني فان أمثال هؤلاء الصغار في سعيهم الى أن يظهروا على حساب البناء الحقيقي يتشبهون الاعشاب الضارة التي تسرق النبات النافع غذاءه ومقومات حياته ٠ ولهذا السبب على الضبط أمم الرئيس عبدالناصر الصحافة ، وقال في تبرير تأميمها ـ في جملة ما قاله ـ ان بعض الصحف بدأت تسيء الى روح المواطنين بتناولها الجانب السطحي المسيء من العلاقات الاجتماعية ، وبتناولها الجانب السطحي المسيء من حياة الفنانين الذين يجسدون صورة المواطن في أعمالهم الفنية ٠ فاذا كان الامر كذلك فان من واجب المثقفين ثقافة حقيقية ـ في الفن وغيره ـ أن يتكتلوا وينزلوا هم الى ساحة النقد وهي ساحة توجيه وتصويب وتشجيع ليمنعوا طفيليات النقد من أن تسلب الحركة الفنية أول مقومات حياتها وهو سمعتها عند الجمهور ٠

ويوم يؤرخ للحركة الفنية في بلادنا ، ويشار الى رواد نهضتنا الفنية ، يكون من عيوب الصورة أن يذكر على هامشهم اسم بعض التافهين والحاقدين والمهوشين حتى يسد فمهم بسحت من المنفعة ٠ والاتحاد القومي الذي في يده الاشراف الفكري والروحي على الصحافة يحمل مسؤوليته في هذا الوضع ٠ وليس عبثا أن يكون الرئيس عبد الناصر وضع في يد الاتحاد القومي سلطة الرقابة على مستويات العاملين في الصحافة ـ وهي أكبر مدرسة شعبية على الاطلاق ـ وليس عبثا أن يكون المؤتمر العام للاتحاد القومي قد الزم الكتاب والصحفيين وجميع العاملين في وسائل الاعلام بميثاق شرف للمهنة لا يجاوزونه ولا ينزلون عنه ٠

غدا يفوت الاوان

قصة بقلم : ام عصام



رميت بجسدي على الحشائش البرية المتطاولة تعبة متهالكة ..

رميت به بعد مسير طويل .. في الطريق المؤدية الى بحيرة مزيريب المجاورة لمدينة درعا ..

رميت به بعد أن أضنتني الشمس المحرقة .. والخطوات التي لم تنته بسهولة ..

وافترشت الارض متفائلة بالوصول بعد عناء المسير .. وهبت النسمات الربيعية تستقبلني بقبلات لطيفة على خدي وخصلات شعري ..

جالت عيناي فوق صفحة الحياة الهادئة التي تتوسط مساحات واسعة من الاراضي المزروعة وغير المزروعة .. والتي نمت فيها الحشائش البرية بكثرة ..

دغدغت قدمي الاشواك ، فلم ألق بالا لدغدغتها اللاذعة واستقبالها هذا .. بل أخذت عيناي تجولان عبر الافق الواسع الذي لا يعرف الحدود ..

ما أجمل الانطلاق وبعد المسافات .. انها تكسبني هدوءا يتسلل الى أغواري ويضفي عليها الصفاء والرضا .. والقناعة ..

انطلقت أصوات الرفاق من حولي تخرق السكون .. من هذا غناء .. من هذا اقتراح .. من هذا احتجاج .. لكن أصواتهم ضاعت عن سمعي اذ بدأت أتفرغ بكليتي للتمتع بالطبيعة ..

وأفقت من استغراقي على يد تحط على كتفي .. والتفت لاجد دعوة الى الاكل .. لقد أمتدت على الارض الصحون والعلب والفواكه .. والكل يتسارعون ويتصايحون لاخذ نصيبهم ..

أصابني هذا المنظر بشيء من الحسرة .. لكم تتوج حياتنا « الروتينية » التي اعتدنا عليها كل يوم .. ملء المعدة بما لذ وطاب - .. لو تخلينا ولو يوما عن عاداتنا التي ألفناها وسئمناها .. لو نمضي نهارنا بدون تلك الضجة .. ضجة الاكل ..

لو تسلل كل منا بهدوء يسكت معدته بالقليل !.. تاركا تغذيته الكلية من الطبيعة .. ماذا لو عشنا ولو يوما واحدا بين أحضان المياه والخضرة والافق الواسع ؟.. نجلس صامتين .. خاشعين .. نصغي الى غنوة آمالنا



وأحلامنا .. نأكل من حديث النسمات .. ونشرب من رفرفة الفراشات .. وننعم بصداح الشحارير ؟..

لكن الحقيقة هي غير ما يتمنى الانسان .. والرتابة هي التي تستولي على حياتنا وتكيفها .. قمت متهالكة أسحب نفسي من وحدتي الى الصخب والضجة .. وامتدت يدي مثلهم بروتينية أمجها تتناول الرغيف المملوء لحما وبيضا .. وعدت الى مكاني ..

حط الرغيف في حضني ينتظر اقبالا مني عليه .. فما ظفر بشيء ..

قطعت أفكاري حركة ورائي .. التفت لارى الخطيبين الوحيدين اللذين كانا معنا وكانا بمثابة بشر وتفاؤل في نفسي لوجودهما معا في السيارة أمامي .. التفت لأراهما وقد دب الخصام بينهما .. اذ تركته نافرة .. يخيم على وجهها جمود طرد البسمة التي تراقصت طوال الوقت على شفتيها ..

وأزعجني ما رأيت كأن قلبي أصابته نكسة مفاجئة ٠٠ وهيمن على أعماقي ألم ٠٠ أدرت وجهي أتناسى ما رأيت وأنا أهمس : مالي ولهما ؟٠ لم أحشر نفسي في خصام الآخرين ؟٠

أدرت وجهي متناسية وغصة لا ارادية قبعت في قلبي ٠٠ ما أكثر أحزاني وهمومي اذ أحمل دائما انعكاسات الآخرين في ٠٠ أحزانهم أحزاني ٠٠ وسعادتهم سعادتي ٠٠ كأني أحمل الدنيا على كتفي وحدي ٠٠ ما أشقاني بهذا الاحساس !!٠٠

وعدت الى الطبيعة ٠٠ والافق الواسع ٠٠ ورفعت رأسي لارى الشجرة التي التجأنا الى فيء ظلها قد تسلقها شاب وفتاة ٠٠ يدمدمان بأنغام موسيقية ٠٠ وجمد نظري عليهما ٠٠ وارتسم في روحي سؤال ؟٠٠ ما مدى السعادة والرضا في نفسيهما ؟٠٠ هل ما أراه على وجهيهما حقيقة أم تمثيلا ؟٠٠ على كل هما في لحظة نشوة وانطلاق ٠٠ ولكن ترى الى متى تدوم ؟٠٠

وعدت الى رغيفي الذي ارتمى بتكاسل على حضني ٠٠ وعانقته يدي لامتثل كالآخرين ٠٠ ودخلت فمي أول لقمة ٠٠ لكنها عنيدة لا تريد المرور ٠٠ فازدردتها بصعوبة ٠٠

والتفت على دمدمة صدرت من جانبي ٠٠ فاذا بطفل لا يتجاوز السابعة من عمره تغطي جسده أسمال بالية وسخة ينظر الي ٠٠ جمدت عيناي في شفتيه ٠٠ في عينيه فترة ٠٠ فترة غبت معها الى طفلي الذي يناهزه في العمر ٠٠ وتصورته هكذا مثله مشردا وحيدا ٠٠ شلت يدي عن الحركة واللقمة الثانية في فمي ٠٠

وبقي ينظر الي وأنظر اليه فترة طويلة ٠٠ ثم قلت له : ماذا تريد ؟ ٠٠ قال : جائع فناولته رغيفي وأخذه اختطافا بحركة سريعة ٠٠

قلت له : أين أمك ياصغيري ؟٠٠ قال : ماتت وهي تلدني ٠٠ قلت : أين أبوك ؟٠٠ قال : مات ٠٠ قلت : أين تعيش ؟٠٠ قال : هنا ٠٠ قلت : أين تسكن ؟٠٠ قال : طريق القرية ٠٠ قلت : أين تنام ؟٠٠ قال : على الاعشاب والحشائش ٠٠ قلت : أليس لك أحد ؟٠٠ قال : لي الله ٠٠

وتسللت من جديد الى صمتي ٠٠ وهو ينظر الي نظرات جامدة ، أكسبته اياها السنون القليلة القاسية التي عاشها ٠٠ وحرت ماذا أفعل ؟٠٠ وتجمدت أفكاري وأحاسيسي معه ٠٠ ثم انحنى على الرغيف يلتهمه بسرعة ولما أتى على آخره سألته : أتأكل ؟٠٠ قال : نعم ٠٠ قمت الى الاكل وأتيت له بمزيد منه ٠٠ فوضعه في حضنه وجلس قبالتي ، وأخذ يلتهمه بنهم ظاهر ٠٠

غبت لحظات قاسية عن جو الرفاق وأنا أفكر فيه ٠٠ في الطفولة المشردة ٠٠ في الشقاء الذي يرافق تلك النبتات الشقية البائسة ٠٠ كيف تقسو الحياة على تلك البراعم النضرة ؟٠٠ التعاسة واضحة في ملامحه ٠٠ الفقر ينطق من كل خلجة ترتعش في حركاته ٠٠ أقمشة ممزقة تخفي القليل من جسده ٠٠ جسده الغض الطري ٠٠ ترى ماذا يحمل هذا الطفل من ذكريات ؟؟٠٠

وتصورت عيني طفلي تنظران الي باستجداء وتعاسة وفقر وجوع !!

وأصابتني هزة مفجعة وحسرة مؤلمة ٠٠ وصمتت حائرة لا أدري ماذا أفعل ؟٠٠

وصحوت على أصوات فتيان مثله وهم يتراكضون الينا ٠٠ وبقايا الاكل تفترش الارض وقد شبع رفاقي ٠٠

وكبرت المأساة في عيني ٠٠ مأساة طفولتهم المشردة التعيسة ٠٠

والتفت الي أحد الاصدقاء قائلا :

ــ ما رأيك يا أختي في أن نعطيهم كل ما بقي لدينا من الاكل ؟٠

هززت رأسي موافقة منتظرة منه هذا العمل النبيل ٠٠ فأخذ يوزع عليهم ما بقي لدينا ٠ كانت الايدي تتلقف ما يوزع بصورة محزنة حقا ٠٠ انفطرت لها نفسي ٠٠ لقد كنت ألمح الحرمان في كل حركة من حركاتهم ٠٠ وفي كل همهمة من شفاههم ٠٠

لله در الحياة ما أقساها ؟٠٠

أين أنت ياطفلي الحبيب ؟٠٠ أين أنت لترى الاطفال الجياع العراة ؟٠٠ أين أنت لترى مرارة الاستجداء وصورة الفاقة ؟٠٠

غرد بلبل على شجرة ٠٠ كأنها اجابة طفلي ٠٠ كأنه يقول لي :

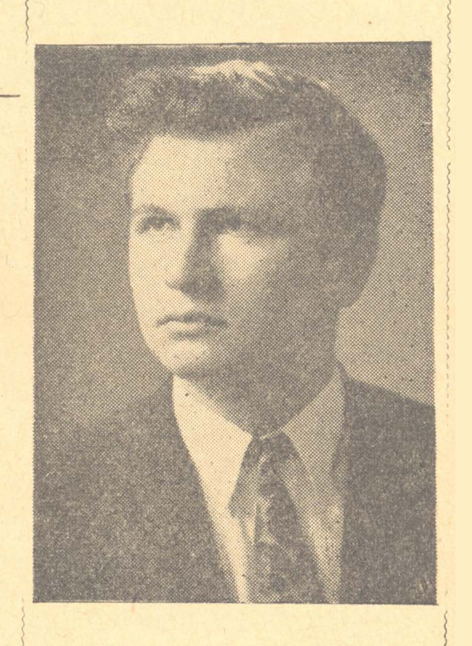
أعطيهم ما معك يا أماه !٠٠ هبيهم شيئا مما حرموا !٠٠ قدمي لهم طعامك !٠٠ أنت دائما تأكلين ٠٠ أما هم فليس عندهم كل يوم زائر ٠٠ لقد جفت معدهم ٠٠ ويبست حلوقهم ٠٠ وهلكت أجسادهم ٠٠

أبهذه الاسمال البالية ياأماه يتقون حر الصيف ؟٠٠ ويتدفأون من برد الشتاء ؟٠ كيف يكافحون العواصف وزمجرة الرياح ؟٠٠ كيف يتوسدون الارض القاسية ويلتحفون السماء البعيدة ٠٠ رباه ! رباه ! انهم رفاقي ٠٠ انهم اخوتي ٠٠ انهم عرب مثلي ٠٠

لم أعد أستطيع سماع تأوهات أغواري وهمسات طفلي ٠٠ قمت أتمشى ٠٠ أخلف ورائي المنظر الذي عاش في أعماقي لحظات عنيفة ٠٠ وكأنها سنوات ٠٠

وغاب جسدي بين سنابل القمح ٠٠ ووشوشتني زهرة : ابتسمي يا أختي ٠٠ آلام الناس كثيرة ٠٠ ومصائبهم لا تحصى ٠٠ أنت الآن في نزهة ٠٠ هل تحملين

شعر: موريس قبق



توبة

لك عمري ، وللحسان تعلات ، فطيري عصفورة فوق دربي
ومتى عاتبتك أسراب أدغالي ، فقولي : أحبه أي حب
ومتى أتعب الهواء جناحيك ، فغلي ما بين عيني ، وهدبي
غبت في مرصد التصوف آبادا ، ولما أطللت عاينت ربي
وتعبدت مطلق الصمت حتى جئت فاستعذب المناجاة قلبي ٠

★ ★ ★

نتفي قصتي وريقات تكفير تحسي أني سئمت التصبي
وهجرت الحلوات كرمى لعينيك ، وصوت منغم العتب ، عذب
أطفأ الطهر شهوتي اذ تبديت ، وصلى في معبد الصبح غربي
موسمي عفت قطفه ، وتمنيت على نخلك السرابي صلبي
انها توبة تبرعم في ظني ، ويمحو بياضها كل ذنبي
كان أمسي طيشا ، وعفوك أنهار خلاصي ، وأنت ٠٠ أنت مصبي ٠

★ ★ ★

موريس قبق

وحدك عبء ما تصادفينه ؟٠٠

وتراقص شبح بسمة على شفتي ٠٠ بسمة تعانق حسرة ٠٠ وتمنيت نفسي أن أكون شيئا ٠٠ كل شيء٠٠ لاهب ما أستطيع ٠٠ ولكن ٠٠ ماذا يفعل انسان واحد؟٠٠ ماذا يستطيع أن يفعل ؟٠٠ ان المأساة لاكبر من أن يتحملها قلب واحد !٠٠ يجب أن تعيش في قلوب الملايين ٠٠ يجب أن نهمسها في آذان طيعة رحيمة لتحس بما يعيش عبر قرانا ٠٠ ومدننا الكثيرة ٠٠ وليست دمشق وحدها التي تضم بين آفاقها مشردين وبؤساء ٠٠

مشيت بين سنابل القمح ٠٠ ومشيت ٠٠

سمعت ورائي خطوات رتيبة ٠٠ واختطفت عيناي المنظر ٠٠ فرأيت الخطيبين اللذين شبك الحب سلسلة حياتهما معا قد بدأت تتفكك وتنهار ٠٠

ودلفت في صمتي ٠٠ تمنيت أن أهمس لكل منهما همسة ٠٠ تمنيت أن أقول لها :

ــ الحياة ملأى بما يزعج يا أختي ٠٠ فما يزعجك الآن ؟٠٠ أنت الآن في عالم وهمي ٠٠ خيالي ٠٠ ضبابي ٠٠ عالم الحب الذهبي ٠٠ لا تضيعي الفرصة ياأختي ٠٠ اغترفي من لحظاتك الحلوة ما استطعت ٠٠ تزودي بما يعينك على تحمل قساوة الحياة عندما تغدو حقيقة واقعة ٠٠

وأنت يا أخي ٠٠

تزود من قلبك ٠٠ الآن تحب فتاتك ٠٠ ولهذا اخترتها من بين المئات ٠٠ أما غدا ٠٠ غدا ستغدو في نظرك مثل سواها ٠٠ غدا ستتحكم « الروتينية » في حياتكما ٠٠ فتصبح برنامجا مفروضا ٠٠ غدا ستسلبك الايام ذلك البريق الذي يشع من عينيك لعينيها ٠٠ غدا ستعبس الليالي ٠٠ غدا يفوت الاوان ٠٠

غدا يفوت الاوان يا أخي ٠٠ ويا أختي ٠٠

غدا تفتشان عن الحب ٠٠ لن تجداه ٠٠

غدا تبحثان عن البسمة ٠٠ فتفتقداها ٠٠

غدا تعيشان في ذكرى هذه الايام ٠٠ وتتساءلان عن السر في نكهتها وعبير لحظاتها ٠٠

عاد الرفاق ٠٠ وركبنا السيارة عائدين الى دمشق ٠٠

الف حسرة في أعماقي ٠٠ ألف مأساة في خاطري ٠٠ الف أمنية في خيالي ٠٠

أريد أن أحقق الكثير ٠٠ أريد ٠٠ أريد ٠٠

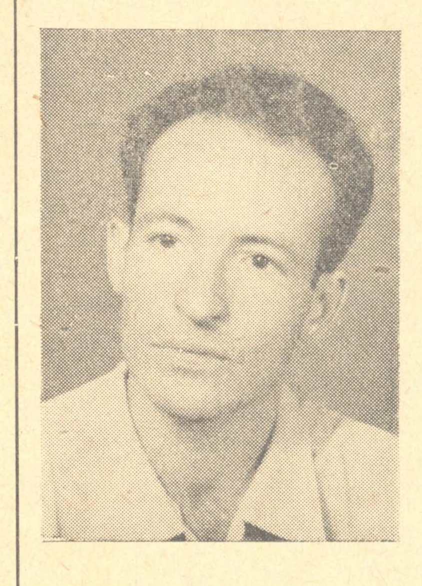
أريد أن أحصل على ما أريد ٠٠ لا أريد أن أتمتم بحسرة غدا :

ــ لقد فات الاوان ٠٠

أم عصام

مثقفونا والمسرح

بقلم :
شريف الراس



حين يدور الحديث عن أزمة المسرح في بلادنا ، فان أكثرية من الناس تحصر أسباب هذه الازمة في ثلاثة أمور لا غير : ان البلاد خالية من المسارح اذن ينبغي بناء مسارح ، وان البلاد خالية من الممثلين اذن ينبغي افتتاح معهد عال للتمثيل والفنون المسرحية ، وأخيرا فان البلاد خالية من أدباء يخصون المسرح بانتاجهم الروائي اذن ينبغي تشجيع الادباء على الكتابة للمسرح ٠

والحق أن هذا التحليل منطقي وواقعي الى حد كبير ، ولكنه لا يحل المشكلة ولا يساعد على تسهيل حل أزمة المسرح التي نعاني منها حاليا ، اذ ليس من المعقول أن ننتظر ـ وقد ننتظر طويلا ـ ريثما يتم بناء المسارح الكافية أو يتم افتتاح معهد عال للتمثيل وتتخرج منه أفواج الفنانين ٠ وانما ينبغي أن ننظر الى امكانياتنا الحالية في ميدان النشاط المسرحي الفعلي ، ونبحث عن امكان الاستفادة منها في مشاريع المستقبل ٠ اذ أن في البلاد أندية مسرحية أهلية تقوم فعلا بنشاط مسرحي مهما كان بدائيا أو هزيلا ، مهما كان اعتباطيا أو بعيدا عن الكمال ، فان المراقب لا يجد أمامه نشاطا مسرحيا سواه ٠ وهذا النشاط لا يجوز أن يهدر أو يجمد ريثما تتم المعجزة المفاجئة بعد كذا من السنين ٠ ثم ان هذه الاندية الاهلية التي تضم تكتلات من العناصر الراغبة ـ عن نية طيبة لا أكثر ـ في أن تقدم « فنا » قد أصبحت بعد كل هذه السنين بؤرات تجارب لا يصح أن تهمل هدرا ٠ لقد حاولت عدة محاولات ، وتخبطت في تجارب مختلفة وخسرت وكسبت وانحلت ثم تجمعت ، ومرت عليها سنوات من الصراع في سبيل النهوض ولكنها لم تنهض ٠٠ لماذا ؟

ان الاجابة على هذا السؤال هو في الوقت ذاته تسليط للاضواء على أزمة المسرح الحالية الراهنة ٠ وانني لا أجد جوابا على هذا السؤال غير مواقف « المثقفين » من المسرح ٠

والواقع أن للمثقفين في بلادنا ثلاثة مواقف من المسرح ، القاسم المشترك بينها انعزال المثقفين عن حركة النشاط المسرحي القائمة أولها موقف أولئك السادة الذين يبترون القضية بترا اعتباطيا اذ يقولون : « ليس عندنا مسرح ولا مسرحيون » ثم يهزون بيدهم كمن يطرد ذبابة عن وجهه أو كمن لا يريد أن يزعج نفسه بمناقشة قضية لا أمل فيها ٠ وهم بذلك يعلنون انعزالهم المطلق عن المسرح المحلي وابتعادهم ـ بل تعاليهم ـ عن المسرحيين المحليين « الشعبيين » أمثال عبد اللطيف فتحي وحكمت محسن وأحمد عداس « فهم لا يحملون حتى شهادة السرتفيكا ، فكيف يمكن أن يصدر عنهم فن ؟؟ » ٠

والموقف الثاني الذي يقفه مثقفونا من المسرح موقف يقوم على التعويض ، فبدلا من أن ينكر المثقفون وجود المسرح جملة وتفصيلا ، تراهم يعترفون بمسرح ذهني وهمي خالص ، هو المسرح المقروء الذي لا يتجاوز نطاق التمثيليات المعروضة في الكتب ، يضاف اليها تلك النتف القليلة مما ينشر عن النقد المسرحي في المجلات الادبية بين الحين والحين ٠ في هذا العالم الوهمي المنعزل يعيش المثقفون ٠ انهم يقرأون شيكسبير وابسن ، ويتحدثون

عن الحكيم وكامو ، وقد يتجادلون حول اشتراكية برنارد شو وواقعية أنطون تشيكوف . وقد يتلمظون اعجابا « بموت بائع متجول » أو « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » . ويضلون ويوغلون في هذه المتاهة الزجاجية الشفافة حتى يغلق الباب وراءهم . فيقعدون داخل هذا التكوين الفكري قانعين بمتعتهم الثقافية ، راضين بالمعلومات المسرحية التي حصلوا عليها ، محافظين على التصنيفات التي تعبت عقولهم في ترتيبها . ومهما زعقت أبواق بائعي المازوت تحت شبابيكهم فانهم لن يفيقوا الى الواقع أبدا .

هؤلاء جريمتهم مضاعفة . فهم أولا بانعزالهم عن الاندية الاهلية قد حرموا عناصر هذه الاندية من تطعيم نواياها الطيبة للانتاج الفني الجيد بالثقافة المسرحية التي قد ترتفع ببعض هذه النوايا الى مستوى الامكان .. وهم ثانيا بتحاشيهم رصد الانتاج المسرحي – على علاته – وبالتالي تحاشيهم الاسهام في نشر الثقافة المسرحية بكتابة نقد مفيد لهذا الانتاج ، قد أتاحوا للجهلة من محرري الصحف المحلية أن يستلموا زمام هذه الوظيفة الخطيرة ، وظيفة النقد المسرحي .. وقد لا يختلف اثنان من أبناء هذا الاقليم على أن الذين يملأون أعمدة الصحف اليوم بما يريدون أن يظنوه نقدا مسرحيا هم جهلة بكل ما في هذا النعت من معنى . وفي الوقت ذاته فان أغلب ما ينشر على أنه نقد مسرحي ليس من النقد ولا من المسرح في شيء ..

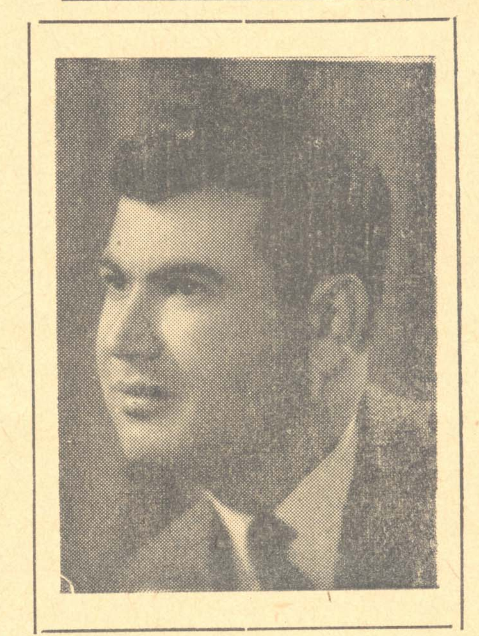
والموقف الثالث الذي يقفه مثقفونا من المسرح اليوم قد يكون أقل تعنتا وقد يكون أكثر ايجابية وفعالية ، ولكنها للاسف الشديد ايجابية.. وفعاليته تكاد تكون مرضية لشدة انحرافها عن طريق الواقعية الاشتراكية التي نريد لمسرحنا الناشيء أن يسير عليها . ذلكم هو موقف تلك النخبة من المثقفين الذين غامروا في الموسم الماضي بتقديم عدة مسرحيات خيالية لفقت في برج عاجي مزيف فكانت هي الخيبة بعينها . ولقد قلنا لهؤلاء المثقفين المحترمين يومذاك : « مشكلتكم تنحصر في سوء اختيار التمثيلية » . انهم أخطأوا في فهم واقع الحياة ، واختاروا مسرحيات تصلح للقراءة لا للتمثيل ، أو قد تصلح للتمثيل أمام جمهور معين من أبناء طبقة معينة لها مشاكلها الشفافة الهفهافة . انني لا أستطيع أن أمحو من ذاكرتي تلك الخيبة الفظيعة التي أصيب بها من شاهدوا « الخروج من الجنة » مثلا . يومها اقترح الجمهور « الخروج من الصالة » عنوانا أشد ملاءمة للمسرحية المعروضة . والذنب كان ذنب المخرج الذي « اختار » المسرحية عامدا متعمدا .

ويبدو أن الثقافة – ان وجدت – فانها وحدها لا تكفي لتأمين نجاح العمل الفني عموما والعمل المسرحي بشكل خاص ، بل لا بد من الحس السليم . وان كنا لا نسيء الى الفن اذا ما قلنا انه هو الحس السليم بعينه فان فن المسرح هو الحس السليم وقد تجلى في أدق مظاهره وفعالياته . والحس السليم يقتضي أول ما يقتضي فهما يصل حد الفهم الفطري لواقع الحياة والمجتمع ومشاغل الناس واهتماماتهم .. وطبيعي أنني لا أقصد من ذلك أن ينحدر المسرح الى مستوى دغدغة المشاغل المنحرفة أو الانجراف وراء النزوات السوقية ، وانما أقصد أن ألفت نظر تلك النخبة من المثقفين الافاضل الى واجب احترام الجمهور الذي يعرف بما فطر عليه من سلامة ذوق كيف يميز الغث من السمين وكيف يتجاوب مع المسرحية الواقعية الاشتراكية وينفر من التفاهات البورجوازية الهفهافة .

تلكم اذن المواقف الثلاثة التي يقفها مثقفونا اليوم من المسرح ، أو لنقل من الاندية المسرحية الاهلية . ولن يقوم حل مجد ما لم يقم جسر بين الطرفين : طرف المثقفين المنعزلين ، وطرف الاندية الاهلية التي لا تملك الا النية والامل .

جبر ضومط ـ اللغوى ـ المعلم
١٨٥٩ ـ ١٩٣٠

بقلم عيسى فتوح



كثيرا ما ترددت في الكتابة عن العلامة جبر ضومط، ابن صافيتا ، صافيتا التي لم تعرف قبله أديبا ولغويا ومعلما كبيرا ، ترددت أملا في أن أقع على بحوث الآخرين عنه ، فتغني معلوماتي ، وتتسع دائرة معرفتي بـه ، لكنني ـ على كثرة تنقيبي عنه ـ لم أعثر على بحث واحد يكون لي بمثابة حجر الاساس الذي يسعفني في اقامة الهيكل الشاهق عن جبر ضومط ، ولذا سأكتفي باغناء هذه الجذاذات الصغيرة التي بين يدي .

.. الوقت صيف . ومنزل الشيخ اسبر ضومط في ناحية « ضهر بيت سمعان » يشرف على البحر من بعيد .. وعلى الكروم ، كروم العنب والزيتون ، ويشرف على البرج الكبير الذي يشرئب بصلف وعنفوان في قلب صافيتا .. يعلو ثلاثين مترا ويزيد .. من عهد الفينيقيين أو الرومان !.. صورة حية تنطبع في ذهن جبر الصبي صباح مساء ، فيقف أمامها مشدوها .. يا للعظمة ! يالروعة الماضين !.. يالضخامة الصخور يتكدس بعضها فوق بعض بحذق وبراعة !..

حائط دار الشيـخ من الحجر الازرق المختلف الاشكال ، نضد فوقه الشوك والحطب لمنع المتسربين ، وباب البيت من الخشب السميك الذي لم يعرف الصقل مرة .. قفله عبارة عن قطعة من الخشب تدخل في صدغ الحائط ، وأمـا المسامير فليست من الحديد كما قد يظن ، بل من الخشب الصلب أيضا ..

ولو رأيت دار الشيخ اسبر ضومط ـ والد جبر ـ في ذلك الزمن للاح لك على يمين الباب (مصطبة) تعلو قليلا عن الدار ، مسقوفة بأغصان شجر الغار ، يجلس فيها الصبي ليكتب وظائفه بجد واهتمام حينا ، أو ليلهو حينا آخر بلعبه البسيطة .. مـا أنضر تلك الحيويـة الدافقة ، والفتوة العارمة والحركة التي لا يقر لها قرار!.. يقطع المسافة بين البيت والمدرسة ، وهو يثب على الطريق وثبا مرحا .. انه فرح اليوم لان المعلم يعقوب قد علمه أسماء الحروف الهجائية بالافرنجي . ولفظها بما يقابلها من الحروف الهجائية العربية .. فما ترك عما ولا خالا ولا خالة ولا ابن عم ، بل ما ترك رفيقا من أترابه رآه ذلك اليوم ، الا وأخبره بذلك .

ما أكثر كلامه !.. ما أشد أحراجه بالاسئلة !.. هكذا كانت تقول أمه .. فلا يكاد الصباح يطل حتى تراه قد قفز من فراشه ، وأخذ يقص على أمه ، ثم على كل واحد من أهل الدار ، وعلى غيرهم من الجيران ، أحلامه الجميلة .. حتى اذا أظهرت الام بعض الضيق به ، اضطر الى أن يسكت خوفا من ضرب مكنستها .. انهـا كانت تضربه أحيانا بالمكنسة لتفثأ من غيظها ، وغضبها على ثرثرته ، وفي الوقت نفسه لا تؤذيه ، وقد لا توجعه أحيانا .. ولم تكن تحفل بتطير المتطيرين بالضرب بالمكنسة .. كل هذه الاشياء كان يسجلها قلم جبر الصغير ، أو يمهد لها في ذاكرته ، فيقول : « سمعت مرة جارتنا امرأة موسى برهوم تقول لها ـ أي لامه ـ : « أما هو حرام عليك تضربيه بالمكنسة ؟! » فأجابتها أمي : « يا ويلي أخاف يا مرة عمي اذا ضربته بغير المكنسة آذيه ، أو على الاقل وجعو ، ومالي قلب اسمعوا يبكي ، وهوي الله يرضى عليه اذا حس على شيء ما بيرضيني ، ما بيعملوا »

ومضت سـنوات انتقل بعدهـا المعلم يعقوب من صافيتا ، ومن غرفته على التل مقابل البرج الى موطنه

لبنان ، ليعلم في مدرسة « عبيه » التي أنشأها المرسلون الاميركيون ، وهنا حزن الصبي على فراق أستاذه الذي كان يعطف عليه ، ويرعاه ٠٠ وراح يقنع والديه بضرورة السفر الى لبنان لاستكمال التعليم على يد معلمه الحبيب ٠٠ لكنه لم يلق غير الرفض والمنع منهما ، وبخاصة من أمه التي كانت متعلقة به تعلقا غريبا ٠٠ وهي ان سمحت له ، فلا يمكن أن تسلم من نقد الجيران وقوارص كلامهم: « ما أقسى قلبها ! تسمح لابنها الصغير بأن يهجرها ليعيش بين قوم غرباء عنه !٠٠ »

لكن طموح جبر ، وحبه للعلم ما كان ليثني من عزيمته أو ليفتر من همته ، فما هي الا سنة حتى قطع المسافة بين صافيتا وعبيه في ثلاثة أيام ، وهو أشد ما يكون فرحا وغبطة ٠٠ غير آبه بتعليقات الجيران وثرثراتهم الباردة ٠٠ وفي عبيه أتيح للطالب جبر أن يعرف أستاذه يعقوب معرفة أوسع وأعمق ، فزاده ذلك حبا له وتقديرا ٠٠

لم يطل المقام في عبيه الا سنة وبعض الاخرى ، لان مدرستها لم تكن لتحقق له العلم الغزير الذي يصبو اليه ، ولذلك غادرها في اكتوبر ١٨٧٢ الى الكلية السورية الانجيلية في بيروت – الجامعة الاميركية – بمساعدة الدكتور « صموئيل جسب » ومساعدة زوجته التي أبدت اهتماما كبيرا بالطالب جبر ، وبخاصة عندما لمست ولعه الكبير بدراسة اللغة العربية وأخواتها الساميات ٠

لقد تحققت لجبر أحلامه الذهبية بهذه النقلة – ويشاء القدر أن ينتقل المعلم يعقوب – الذي أصبح الدكتور يعقوب صروف الآن – الى الجامعة الاميركية ليدرس العربية ٠ فيفرح جبر ويرقص طربا ، لان دائرة تلمذته ستكبر ، وبحوثه ستعمق على يد استاذه ٠٠

وهكذا قضى أربع سنوات أخرى مع معلمه ، تخرج بعدها بشهادة بكالوريوس في الآداب ، وعاد الى صافيتا ١٨٧٦ ، لكن صلته به لم تنقطع ، اذ بقي يراسل مجلة « المقتطف » التي انقطع اليها الدكتور صروف بعد التعليم ، وبذلك انتقل من التلمذة بواسطة المدرسة الى التلمذة بواسطة المقتطف كما يقول جبر ضومط نفسه ٠

★ ★ ★

لم يطل مقام جبر بصافيتا بعد تخرجه ، لان مجال العمل ضيق ، والشهادة التي يحملها أصبحت تؤهله للتدريس في أرفع المدارس ، لذلك نزح الى حمص ليعلم في مدرستها الاميركانية ، ثم الى طرابلس في أواخر شباط ١٨٧٧ ليعمل العمل نفسه ٠٠ وتدور الايام دورتها واذا بالاستاذ جبر ضومط يعين مدرسا للادب العربي والنحو والبيان في جامعة بيروت الاميركية خلفا لاستاذه الدكتور صروف ، وعندئذ اتسع المجال أمامه للاطلاع على اللغات السامية التي اتقن منها العبرانية والسريانية لصلتهما الوثيقة باللغة العربية ، ولعقد مقارنات بين اللغات الثلاث ، تدل كلها على الذكاء والدقة ، والعلمية في البحث والتحليل ٠

لقد قامت شهرة جبر ضومط على أبحاثه اللغوية بالدرجة الاولى ، كتاب (الخواطر في اللغة) ١٨٨٥ ثم (فلسفة اللغة العربية وتطورها) وكلاهما أبحاث في أصل اللغة العربية وخصائصها ، وميزاتها ، وقدرتها على التوليد ، وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها ٠٠ سلك فيهما مسلك ابي علي الفارسي وابن جني ، وأحمد بن فارس ٠

يقول الدكتور صروف من كلمة أعدها لتتلى في يوبيل الاستاذ جبر ضومط الذهبي : « لو اكتفى الاستاذ جبر ضومط بنظم الاشعار كما كان ينظم بعيد رحلته الى السودان ، أو بتعليم الصرف والنحو والبيان كما يعلمها كثيرون غيره ، لما استحق في رأيي ان يحتفل به هذا الاحتفال ٠ ولو قضى في التعليم ستين سنة لا خمسين لما وجدت سبيلا لالقاء هذه الكلمة عنه ، ولكنه عمل ما هو أهم من ذلك كثيرا ، بحث في نشوء اللغة العربية بحثا أحسبه مبتكرا عندنا ، وممهدا لعمل أعده من أنفع الاعمال » ٠

يرى العلامة جبر ضومط أن لغات البشر اليوم كانت في الزمن القديم لغة واحدة قليلة الكلمات والاصوات، ثم تفرقت طوائف ، وكل طائفة تشعبت شعبا كثيرة ، ودخل المزج والنحت في كلماتها حتى بلغت ما بلغته ٠٠

ومن طريف أبحاثه في كتاب (الخواطر في اللغة) أنه وجد الكلمات التي تتشابه في مخارج بعض حروفها ، تتشابه في معانيها أيضا : كجذع وجدع ، وجدم وجذم، وختم وكتم ، وكخثر وخثر وختل ، وكقطب وقطف الخ ٠٠

ان بحوث هذا العلامة لا يمكن أن تلخص في مقال لا يتجاوز الصفحات ، وحسبي أن أعطي فكرة عن تنوع المجالات التي كتب فيها ، بايراد عناوينها فقط وهي : مهد الجنس السامي ، أصل النبط في البتراء ، ترتيب الفعل ومتعلقاته ، البلدان العربية وأهمية اللغة العربية فيها ، اللغة العربية ما أخذت وما أعطت ، أهمية العربية في الممالك العثمانية ، الحثيون ، مواد كلية في النحو والاعراب ، عود الى النسبة ، ارتقاء اللغة العربية ، اللغة العربية واللغات الاوروبية ، وأخيرا نهضة الشرق العربي الخ ٠٠

ألاحظت معي كلف هذا الانسان بلغته العربية ، وغيرته عليها !٠٠ لقد كرس حياته كلها لخدمة العربية وللحفاظ على سمعتها وهيبتها بين اللغات ، فحق أن يكتسب فخر العرب أجمعين ٠

دمشق — **عيسى فتوح**

ويلز

تعريب محمد سعيد الكيلاني

٠٠ ونستطيع ان نقول عن بضعة كتاب فحسب ، ان كتابتهم تجسم وتعكس حياة العصر الذي عاشوا فيه٠ فكتابات تشوسر وقصص (ديكنز) كانت متعددة الجوانب ، وقائمة بدقة وتركيز على الظاهرة الاجتماعية في أزمنتهم المختلفة ، بل يمكن ان نعتبرهم ممثلين لزمانهم ٠

اذا سئل أحدنا أن يختار الكاتب الاكثر انطباقا على السنوات الاولى للقرن العشرين ، فان أقوى ادعاء سيتجه بلا شك الى السيد ويلز ، من بين كتاب ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥ ، ويعكس في مرآته آمال ومثل هذه الحقبة بحذافيرها وخلافاتها وتشاؤمها ٠ وما قاله في كتابه : (تجربة في التراجم) ١٩٣٤ ، ينطبق انطباقا صحيحا على كتاباته :

(ان قصتي في الحالين قصة شخصية وتاريخ لامثالي وزمني) ٠

ولد ويلز ١٨٦٦ في أيلول ٠ ولد فوق الحانوت حيث كان والده ـ جوزيف ويلز ـ يبيع أدواته الزجاجية والفخارية وبعض العاب صينية فيه ٠

ولقد أرسل الى مدرسة محلية خاصة هي (أكاديمية مورلي) ٠ حيث كانت الثقافة تجري على أردأ تقاليد القرن التاسع عشر ٠

وأنهت حياته التعليمية كارثة مالية وهو في الرابعة عشرة ٠ عند ذلك تمرن على البيع كأجير عند تاجر جوخ في وندزر ٠ ولنفس السبب عادت أمه للعمل المنزلي كخادمة في بيت كبير ب (كانت) ٠

وقد فشلت هذه المغامرة الاولى في العالم التجاري كما فشل تمرينه الكيميائي في (ميدهورست) حيث أصبح طالبا لسبعة أسابيع في (مدرسة النحو) المحلية٠ ولم تنكر أمه على نفسها طموحها في أن تراه بائع جوخ طائر الصيت ٠

ففي ١٨٨١ ذهب الى (ساوت سي) حيث قضى سنتين في العمل المضني أجيرا في مخازن الجوخ ل : (هيدز) ٠ وقد اكتشف بنفسه ـ في سن مبكرة ـ رغبة



ملحة للمعرفة ٠ وكان كلما سنح له وقت فراغ أقبل بنهم على القراءة ٠

غير أن حبه للمطالعة قوته كتابات مختلفة ك (جمهورية افلاطون) (حقوق الانسان) ل : (بين) ، أثناء زيارة استذكارية لامه في (أبارك) ٠

وفي البحر الجنوبي (ساوت سي) كان يقرأ كل شيء يقع له ، ثم غادره عام ١٨٨٣ بيأس كلي ٠ وبعد فترة وجيزة ـ لكنها سعيدة ـ حصل كأستاذ مساعد على منحة مدرسية مجانية ، مكنته من ان يحضر صفوفا كاستاذ متمرن في (مدرسة العلم الطبيعي) ٠ (كينسفتون) ودرس على البروفسورر هكسلي ٠

وبينما كان يكتشف عجائب العلم ، سنحت الفرصة لكي يصبح عضوا مبرزا في جمعية (المجتمع المنحل) ، وأصبح ملاحظا دقيقا للاحداث السياسية ، وكان الزمن زمن انهيار تجاري ، وزمن بطالة وقلق اجتماعي ٠

وبينما تجمعت الرأسمالية حول نفسها في شركات

محدودة ومخازن كثيرة ، كانت نقابات العمال آخذة في تنظيم نفسها استعدادا للمعركة المقبلة • وبما أنه فشل ١٨٨٧ في الحصول على درجة جامعية ، فقد عاد الى مدرسة خاصة يعلم بها في (دربشاير) حيث حصلت له تجربة أبعد غورا في المجتمع الشرير عندما كان طفلا يقاسي آلامه •

وبعد حقبة من المرض القاسي عاد الى لندن ١٨٨٩ ونجح في ١٨٩٠ بالحصول على درجة شرف ممتازة في العلم الطبيعي •

وخلال ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ كان قادرا على كتابة مقالات علمية • وقد مكنته الكتابة في الصحف على نطاق متزايد ، ونشر قصص وأقاصيص صغيرة ، مكنته من ان يقيم كيانه على حياة كاتب حر • وهي الحياة التي سار وراءها بجد لا يعرف التواني أكثر من خمسين عاما ، حتى موته ١٩٤٦ •

فمن تجربته (كجوخي) ومن محيطه ذي الطبقة الوسطى في شبابه الاول ، ومن سني الكفاح الصعبة العلمية التي ناقضت العالم الحي العذب المنظم ، ومن ثقافة الآخرين ، ومن ممالك الذهب التي سافر فيها عقله وروحه لاماد بعيدة مع رغبة عميقة للمعرفة •

من هذا كله تشكل عقل ويلز الخلاق الحيوي القوي • وأثر هذا العقل على العالم المعاصر يمكن تتبع أثره ـ لنصف القرن الماضي ـ في شكل انتاج أدبي ، أكبر وأكثر اختلافا من أي كاتب آخر لا يزال حيا •

فقد كتب أكثر من أربعين قصة ، وعدة مجلدات من القصص الصغيرة ، وكتابات ثقافية تاريخية وعلمية وسياسية • وتحت اختلافها الظاهري ، يتوارى ارتباط وحدة فكره النادرة ووحدة فكره العظيمة •

ان المثل السامي الذي يشغل تفكيره المكان الاول ، كان ما دعاه (المؤامرة المفضوحة لعالم أحسن) : « ان معركتنا مع المحن وما يحبط المساعي ، ومع الاشياء الحمقاء الثقيلة البغيضة التي سنتخلص منها لا محالة ، هذه المعركة تحب ـ على الاقل ـ المنتصرين الذين يقهرون العالم أكثر مما تحب النوام المستيقظين من كابوس مع الفجر » •

ولقد كرس لتحقيق هذا كتاباته ، واخضع كل الاعتبارات الاخرى للمثل الرئيسي الكبير ، مفضلا ان يعرف كصحافي ، على أن يعرف ككاتب قصة ، رافعا من قيمة حقائقه المذكورة ، القائمة على المنطق وتفسيراته للتاريخ والعلم • كما قدمها في (حقائق التاريخ البارزة) أو تفسيره للفلسفة الاجتماعية والاقتصادية كما في (عمل البشر وثروتهم وسعادتهم) •

وقد يقرن الانسان الكاتب نفسه بكتب أقل مما يجدر به • كما أن الذكريات المؤلمة المبكرة تتجمع في اولى جولات الكاتب في عالم الكتب • لان اولئك الذين أخذوا يجدون قصة (جولز فيرن) قد مضى زمنها قليلا ، نجم لهم الاكتشاف الرائع لكتاب (عصر الآلة) وتبعه كتاب (عالم الحروب) ، بقدر ما كانت تسمح به المكتبة المحلية• وتبعه (أول انسان في القمر) و (الحرب في الجو) • والمغزى الخلقي كان يتمثل حتى في هذه الكتب •

بيد ان الصوت النبوي كان خافتا ناعما ، والدرس الذي غناه الانسانية ، طغى عليه عالم المارتينيين ورجال القمر وآلات عجيبة أيقظت خيال الشباب •

ولم تكن القصص الصغيرة أقل مسرة من السابقة• وأثار معظمها شعور الغموض ، وخلق في عظمتها الباذخة ذلك العالم الذي لم يحبه أحد ، ولكنه يستحوذ على عقل الطفل (بلد العميان) و (باسبيللوس المسروقة) ونشر (مجموعة من القصص القصيرة) ١٩٢٧ كانت مناسبات عظيمة •

ان أحدنا يستطيع صحبته في فترته الاولى بصورة مباشرة ، ليصحبه وهو على يقين من أن معجبيه الذين يلتقي بهم ، سيكونون على غاية من الاقتناع ، كما في الرد الحقيقي للتفاصيل ، والمهارة في التخصص في (روبنسون كروزو) و (جزيرة الكنز) • ويوجد اكتشاف آخر عميق وكاف في طريق الاتيان ، القصص الثلاث التي تقوم عليها شهرته بلا شك وهي : (كيبس) و (توني بانك) و (تاريخ مستر بولي) • وفي هذه الكتب يتفوق ويلز « لاول مرة ـ وربما لآخر مرة ـ » الفنان على ويلز المفكر •

انها قصص بسيطة عن أناس عاديين • ولكنه اهتم بشخصياتهم وبالخلاف والشقاق الناتج في شخصيات الرجال القليلي الاهمية بسبب حضارة طارئة • ولقد سلك طريقة في مهاجمة المجتمع ، مدخرا طاقة هائلة نامية ، وابتكارا من ثروة استهزائية ، وبصيرة عميقة في مظاهر الاشياء الانسانية •

قصة (كيبس) ١٩٠٥ قصة روح بسيطة تخلصت بواسطة دراهم موروثة غير متوقعة ، من حياة أجير جوخي بشعة ، تافهة ، الى عالم الثروة •

عشق احدى الفتيات اللامعات • ولكنه سرعان ما تبين خطيئته ، فتزوج الوصيفة بدل السيدة •

ان مشكلة الصراع الفردي مع نظام اجتماعي غير مرض ، بحث في قصته (تونوبنكي) قليلا • ولقد قضى (جورج بانديفو) سنيه الاولى في ظل نظام تقليدي قديم سام ، كما هو واضح في (بلاد سوفر) ، فيثور على التقاليد الصارمة الزائفة ، يثور على العمل الشاق العسير في فرن (نيكو ديمس فراب) •

ويجد أخيرا ملاذا روحيا مع العم (كوند رفو) في اختراعه للدواء القوي (تونو بنكي) ، وفي تقدمه الناجح خلال عالم لندن الاجتماعي والمالي • وتتجسم القوة الجديدة القاهرة للحركة التجارية التي لا ترحم ، والتي تستأصل أسس نظام المجتمع القديم •

ان عظمة الكتاب ترتكز ـ في حقيقته ـ على أن هذا

الموضوع العميق لم يزده أحد تأكيدا ٠

فقد أعطى الشكل الدقيق والقوة الخيالية في وصف أمكنة (بلاد شوفر) ولندن والماردة الحمقاء الكبيرة من الناس ٠ ووصف بخصوصية أشد ، الرجل المعاصر (جون بون دفز) الذي يبحث عن الحقيقة ٠ والذي لا يجد في النهاية المرة الا العزلة المطلقة في الآفاق الجديدة ٠ انها قصة عظيمة تقارن بقصة غولزورثي (فور سايت) وهي الهام بالمعنى المعاصر ، ولكنها أعمق وأكثر انسانية ٠

والعالم الكوميدي (الفني) الذي اكتشفه ويلز في (كيبس) و (تونوبنكي) أتم تعبيره الكامل قصة (تاريخ مستر بولي ٠ وهي ملهاة رجل ضئيل الشأن ، مماثل لادنى الطبقة الوسطى الفيكتورية ٠

والحقيقة أن أحسن ما كتب ويلز ، في هذه القصة ، هي أقل عمقا فيما يصف من القصص السابقة – بنيكه – وأكثر انسجاما وموضوعية وفكاهة ٠ انه عمل فني عظيم ٠ ولا شك أن ويلز اذ نشر كتابه – مستر بولي – ١٩١٠ وجد نفسه وجها لوجه أمام ضرورة اتخاذ القرار الذي سوف يغير قصته أجمع ككاتب للقصة ٠ لقد رأى أن الاداة التي اختارها ليظهر الخلاف بين الشخصية والبيئة ، لن تجدي في اتمام مثله السامي في اصلاح العالم ٠

ولقد هيمن الآن ويلز المصلح العلمي على ويلز الفنان ٠ هذا الاختيار كان قد عبر عنه في مقال واضح تحت عنوان (القصة المعاصرة) ، كتب اولا ١٩١١ ونشر مؤخرا في كتاب المقالات (انكليزي ينظر الى العالم) ١٩١٤ يقول :

« ان القصة يجب ألا تبقى منوما عاريا من الاذى ، تشغل ساعات فراغ الرجال الناجحين ٠ القصة يجب ان تتحرر من القيود التي هي في نظره قد وضعت بشكل طغيان على تطورها الطبيعي من قبل النقاد ٠ يجب العودة الى طريقه الحديث المثير الهادىء ل : (فيلدينعوسنترن)٠ واذ ندخل تعبيرا أوسع حرية ، تستطيع القصة أن تصبح ما يدعوه ويلز : الاداة القوية في التفكير الاخلاقي ٠

وهكذا تستطيع القصة أن تعكس النزاع المعاصر الكبير بين النظامين : القديم والحديث ٠ وتصل هذه المقالة القيمة حيث يعرض القصة قائلا :

« المفكر الاجتماعي واسطة التفاهم ، واداةالاختبار ، ومعرض الاخلاق وتبادل الاعراف ومصنع العادات ونقد القوانين والمؤسسات والافكار والعقائد الاجتماعية » ٠

لقد كانت فكرة عمل القصة أنها قصة أفكار ٠ وكان هذا الضعف الاعظم في كل ما كتبه من قصص أخيرة ٠ والصفة التعليمية هي الصفة الوحيدة المميزة في هذه القصص (جون وبيتر) و (الزواج) و (روح القسيس) و (والد كريستينا البرت) و (عالم ويليم كليسولد) ٠

وفي هذه القصص تخضع الحوادث للنظريات وتموت الشخصية في صحراء النقد ٠ وفي القصص التي كانت أكثر نجاحا كان يوجد هجاء يمدها ببعض القوة والحيوية وببعض الاخصاب الفني الذي يصف القصص الجيدة ٠

وما عدا القصة – فالقسم الاكبر من نشاطه الخلاق (الذي كان معه دائما وعلى جانب كبير من الفيض) قد كرسه لعرض مثله وآرائه في كل شيء يخص الدول العظيمة ، التي اعتبرها الحل لجميع مشاكلنا ٠ وجلب لكل معضلة نظرة جديدة ، ومددا من معرفة واسعة مم يدعو للاعتبار ٠ لقد كتب في الثقافة ، ولعل أشهر م كتب في ترجمته للمدرس الكبير : (ساندرس) من (أوندل) ٠ تحدث عن الزواج والارتقاء وعالم التاريخ والعلم الشعبي والدين وعلم الاجتماع ٠

تتابعت نظراته دائما واضحة ولم تتناقض أبدا ٠ ومن ورائها تأصلت جذور أمله في أن يضيف شيئا الى تقدم الانسانية ٠ وهذا الامل قد يلاقينا بدرجة صغيرة أو كبيرة في جميع أعماله ٠ ويعطينا حافزا دائما وتأكيد لمجهوده ٠

ويرتبك أحيانا ويغيب تأكيده في تعويله عليها في كتاباته الاقل نجاحا ٠ ولكن هذا الامل لا يضعف فقد يبقى أعمق وحيا من الجميع ٠ وان تردده السياسي الظاهري يفسر بحماس عالم حق تشبع بالنظريات السياسية الحربية والغيبانية لهيئة الامم وحزب العمال٠

غير أنه كان يجد نظرتهم في كل حالة ، وضيق مفهومهم ، مما ساقه الى نهاية الممر الوحيد الذي سار عليه الى دولته المثالية ٠

ان قصة متابعة ونمو وتشكيل عقائده ، تروى بأمانة وبساطة جميلة لطيفة في كتابه الذي كثيرا ما يقرأ، واسمه (تجربة في التراجم) ٠

لقد كان ويلز مثل (أليسس) عند (تينسون) له الامل في (أن أتبع المعرفة وراء أقصى حدود الفكر الانساني) كالكون ذي النشيد ٠

ولقد عرف أيضا الدافع الدائم ، لان يقدم هذه المعرفة الى أترابه ٠ وشعر بكل البواعث الماسة التي يشعر بها النبي والمصلح ٠ ولكن طريقة الحياة التي نعيشها لا تدع مجالا لهذه الدقائق من التأمل الهادىء ، حيث ولدت شخصيات مثل (كيبس) و (بولي) ٠ لقد أثبت ايمانه بالتقدم العلمي الذي أيقن ان البشرية تستطيع انجازه ، اننا ندين له بالكثير مما نأخذ به كبديهيات ٠ وكان بين المجلين الاوائل الذين رأوا ضرورة العمل ، وسددوا بعد ذلك السنان لهجوم على القوى التي تقوم برد فعل ، ولها غرض خاص ٠

أعطانا فكرة مدنية تقوم طبق خطة مرسومة ٠ ومع ذلك فان كل أشواقه الى عالم جديد شجاع ، يأتي في آخر اعتبار ٠

انه اعادة خلق جديد خيالي للعالم القديم السيء الذي لا يمكن أن ينسى ٠ وهذا ما سيعطيه مركزه الوطيد في تاريخ الادب الانكليزي الحديث ٠

الاسرة ومشاكلها الاجتماعية

بقلم : باهر مدحت

الاسرة وحدة المجتمع وأهم جماعة فيه فهي أسبق نظام في التاريخ الانساني وجدت قبل أن يقوم أي نظام اجتماعي آخر أو سياسي أو ديني أو اقتصادي كما أنها نواة المجتمع التي تعكس عليه صفاتها ومميزاتها وتمده بكل ما فيها من محاسن أو مساوىء .

وما في المجتمع من عادات ومشكلات نشأ معظمها مع نشأة الاسرة فتقسيم العمل نشأ في الاسرة بتخصيص الواجبات بين الرجل والمرأة بل ان العمل الذي يختاره الفرد لنفسه يتوقف الى حد كبير على نوع العمل الذي يقوم به أبوه أو على نوع التربية وطرقها التي تتبعها الاسرة وكذلك الامر في الدين فالابن يحترم عقيدة والديه ويعتنقها وكذلك الامر في الملكية والتوريث بل الى أبعد من ذلك فالرعاية الاجتماعية وطرق الخدمة العامة كرعاية المسن والمريض والعاجز وخدمة الفرد والجماعة كله بدأ من ربوع الاسرة وانتقلت هذه الشؤون بعد ذلك تدريجيا ومع تقدم الزمن وتعقداتها وتطوراتها للهيئات والدولة .

فضلا عن ذلك فان الاسرة هي النظام الطبيعي الذي يكون فيه الفرد نزعاته وميوله ، ورغباته ، وعواطفه ، وأحاسيسه ومشاعره فيتعلم من الاسرة التضحية والتعاون والانسانية والتفاني والتنافس وروح الاخلاص والغيرة وحب الوطن كما يتعلم فيها اذا فسد جوها روح التنكر والحقد والحسد والضغينة وحب الذات والميل الى الانتقام .

والاسرة في جميع تطوراتها من حيث الشكل والسلطة أو الحجم لا بد لها من توفر شروط وأركان خاصة لقيامها كالمعاشرة الزوجية وتأسيسها على نظام يحدد بمقتضاه الحقوق والواجبات بين الزوجين ووجود محور قرابة ينظم النسب في الاسرة فقد كان يعرف الشخص قديما بنسبته الى الام (نظام الامومة أي زعامة الام) أو نسبته الى الاب (نظام الاب الرئيسي) مع ضرورة قيام نظام اقتصادي معين يحدد الحقوق الاقتصادية من قبل الزوج أو الزوجة كمسؤولية الانفاق والصداق والنفقة في حالة الطلاق وغير ذلك وكل هذا له أثره في حياة المجتمع وسن القوانين الوضعية العامة التي تساير هذه النظم الاسرية .

والواقع أن نظام الاسرة في عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وصفاتها وأنظمتها الداخلية وحجمها وسلطتها



ومشكلاتها مقياس تستطيع به أن تقيس أحوال المجتمع الخاصة والعامة في شتى النواحي .

ولا ننكر أن المجتمع بدوره يؤثر في حياة الاسرة ونظامها فنظام زعامة الام نشأ في عهد كان فيه حق الام غالبا وكانت فيه القرابة ممتدة في سلك الانثى وأكبر سبب في هذا أن الحياة كانت يومئذ بدائية وكان الرجل صيادا يجوس الغابات والفيافي والقفار ليحصل على قوته وقوت أولاده مهددا بالقتل وافتراس الوحوش وعدم العودة لبيته أما الام فكانت مستقرة في منزلها تربي أولادها . ومن ثم نشأ من الاسرة نظام يدعو الى احترامها وزعامتها ولكن لما تغير نظام الحياة وأصبح الرجل زارعا مستقرا أو صانعا في بيته أو مصنعه يعود لاولاده آخر النهار كادا بجهده لسعادة أولاده وجعلهم أعضاء عاملين في مجتمعهم نشأ نظام زعامة الاب في ربوع الاسرة .

حقا أن للاسرة مشاكلها الاجتماعية وان هذه المشاكل تنعكس على المجتمع في صور شتى . ولذلك نجد أن الاهتمام متزايد سواء من جانب الدولة أو رعاية الهيئات الاهلية للاقلال من هذه المشاكل الاسرية فكلما عني بحلها أو الاقلال منها مع الوقاية من أعراضها كلما

كان لذلك أثره البالغ في حياة المجتمع بأسره ٠

وموضوع بحث مشاكل الاسرة يتناول أولا وقبل كل شيء تحليل مركز الاسرة في المجتمع كما يعرض التغيرات التي طرأت على وظيفة الاسرة وبنائها في العصور الحديثة ٠

والواقع أن هناك تفاوتا كبيرا بين مجتمع وآخر في مدى هذه الصفات أو ضعفها ٠

ان مركز الاسرة في المجتمع يتميز مهما تباينت صفاتها بخصائص هامة أهمها :

أولا - العمل على بقاء الجنس البشري وهذا من وجهة نظر المجتمع من أهم وظائف الاسرة غير أنه من وجهة نظر الوالدين يشيع فيها غريزة حب النسل وعاطفة الابوة والامومة لانشاء جيل مؤمن بعقيدته شجاع بنفسيته قوي بشخصيته ٠

ثانيا - اشباع الغريزة الجنسية اشباعا منظما مقدسا ٠

ثالثا - ايجاد المسكن اللائق الذي يأوي اليه أفراد الاسرة ويشعرون بداخله بالراحة والطمأنينة ماديا ونفسيا ومعنويا ٠

وتتوقف سعادة الاسرة على مبلغ تحقيقها لهذه الاغراض مجتمعة وفي الواقع أن المجتمع الناهض هو الذي يمكن الاسرة من بلوغ هذه الاهداف دون أن يكون في تحقيق الواحد منها انتقاص للآخر ٠

وأهم المشاكل التي تقوم في حياة الاسرة وتقعدها عن القيام بوظائفها الرئيسية فتسلبها السعادة والهدوء والاستقرار وهي :

أولا - عدم الشعور بالسعادة فكثيرا ما تسأل الناس عن مبلغ شعورهم بالسعادة الزوجية فيجيبونك أن متاعب الزواج تفوق لذائذه وأن العزوبة على ما فيها من عيوب ومتاعب تفضل الزواج وما يجبه من مسرات ٠٠

والحق أن في هذا القول نصيبا من الصحة وان كان المتزوجون يغالون في التصوير والسبب في ذلك أن الشباب عند اقبالهم على الزواج لا تكون لديهم فكرة واضحة عن ماهيته وأغراضه ويتقدمون اليه في شيء من الاستخفاف والاستهتار اما بدافع شخصي مؤقت أو لتحقيق غرض واحد من أغراض الحياة فالرجل قد يندفع الى الزواج من فتاة ملكت لبه بمحاسنها الجسمانية فينظر الى جمالها فقط دون أي اعتبار آخر من الخلق والاخلاق أو للحصول على غنم مادي ويكون بذلك تفاوتا شاسعا وعدم تكافؤ لا في الثقافة والحسب والمدركات والوعي فحسب ٠ بل لقضاء شهوة موقتة فقط والفتاة بدورها قد تقبل على الزواج من شاب استولى على شعورها بحلو حديثه أو وجاهة مظهره أو قد يكون لمجرد الزواج للحصول على من ينفق عليها في سعة وطلبا لحب الظهور والجاه كل هؤلائك يخطئون التقدير ويسعون الى الشقاء بخطوات سريعة ويفقدون الحياة الزوجية السعيدة ويملأون أركان الاسرة شقاء وانحلالا هنا يجب أن يفهم كل راغب في الزواج أن الانانية هي أول أسباب الشقاء فمن الضروري أن يعلم الشاب والفتاة أن الزواج وتكوين الاسرة شيء جليل وأمر خطير يجب أن تدبر أموره بحسن الاختيار فالزوجة الكاملة هي التي تجذب الزوج اليها بكمال صفاتها وأخلاقها وحسن معاشرتها كما قال تعالى ولهن مثل الذي عليهن ٠ كما يجب أن تكون فترة الخطوبة أي ما قبل الزواج فترة مناسبة ليمكن لكل من الخطيبين أن يتفهم الآخر ويعرف مشاعره وأحاسيسه ويتلاءم كل منهما للآخر في حدود امكانياته وقدراته الخاصة ٠

وعلى ذلك فمن الضروري على من اعتزم الزواج أن ينظر في فتاة أحلامه الى تلك الصفات الخلقية التي تبدو آثارها في كل يوم من أيام الحياة الزوجية تلك الخلال والصفات التي تبقى بل ترقي على مر السنين وكر الايام بعد أن يذبل الجمال الجثماني ويشتعل الرأس شيبا اذ لا قيمة لجمال الجسم دون جمال الخلق (امرأة فاضلة من يجدها ثمنها يفوق اللآلىء) ٠ وبذلك يكون لزاما على من اعتزم الزواج أن يبحث عن تلك المزايا ويختار صاحبتها حتى يستطيع أن يجد ضالته المنشودة اذ لا سبيل باستقرار الزواج ما لم يكن الاحترام لكمال الاخلاق مقرونا بالحب للجمال الذي يثير في النفس عاطفتي التقدير الشخصي والحب ٠

لا نعدو الحقيقة اذا قلنا أن الزواج رحلة طويلة مع زميل مجهول الى أرض مجهولة فعندما يركب الزوجان القارب من شاطىء البحر العباب بحر الحياة ويطلقان الشراع للريح تبدأ رحلة مليئة بالمفاجآت والمغامرات وكلما بعد الشاطىء وتوارى عن النظر جمهور المودعين انصرف كل من الزوجين الى زميله يأنس اليه ويفتح قلبه له معضدا اياه بكل ما حوت النفس من مشاعر وعاطفة كل يصبو أن تكون الرحلة طويلة وسيدة والبحر هادئا والرياح رقيقة مؤاتية ٠

ومن عجب العجاب ونحن في هذا العصر نرى أن الزوجين يقومان بمثل هذه الرحلة الخطيرة في قوارب زاهية البنيان مزركشة الاركان دون أن يلما بأبسط قواعد الملاحة ظنا منهما أن زرقة البحر وهدوء النسيم ومجال الشمس الساطعة هي كل ما في الرحلة من الوان٠ ترى هل علم هؤلاء أن البحر قد يرغي ويزبد ويهدر وأن

الهواء قد تتحول ريحا عاصفة وان الشمس قد تتوارى وراء السحب القائمة وتتركهم في ظلام دامس ٠

فليس الزواج أثاثا ونفائس وثريات بل أن العش الهادىء البسيط في جو يسوده الوئام والمحبة والتفاهم هو أقيم من القصور الذي يخيم عليها الشقاء والتعاسة بين الزوجين ٠

أما المشكلة الثانية فكثرة الاولاد وعدم تحديد النسل فالاسرة قد تضيق ذرعا بمواردها القليلة ومع ذلك تنجب أولادا كثيرة مما يدعو الى افتقارها وعدم قدرتها على سد حاجاتها والوقوع فريسة للاعداء الثلاثة الفقر والجهل والمرض ٠

ان ظاهرة تعدد الزواج وكثرة الاولاد ظاهرة اجتماعية بين الطبقات الفقيرة فان الوعي النسلي وتحديده لم يخطر لهم على بال ويرون فيه خروج على الدين وزندقة وقتل أرواح ٠ وهذه المشكلة قد تؤدي الى تفاقم الخطر على المجتمع فيكثر المتشردون والمتسكعون وتكثر الجرائم بالتالي كما نرى أن الموصومين عقليا يتزاوجون ويتناسلون في كثرة مذهلة بينما هناك نقصان كبير في حجم الاسرة بين الطبقات المتعلمة والمثقفة والثرية مما ينتج عنه تضخم عدد أفراد الاسرة بين غير القادرين والفقراء والمرضى ٠ ولقد سبق الاسلام الى ذلك فقد قال النبي العربي صلى الله عليه وسلم قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين ٠

وقد اهتمت الدول الحديثة بأمر ضبط الانسال خصوصا في العائلات الموصومة ومرضى العقل والنفس والصرعى والمتعطلين والمجرمين العائدين وذوي العجز الاجتماعي في مختلف صوره بطرق ايجابية وأخرى سلبية بل أصدر بعضها التشريعات اللازمة لتنفيذها ٠

ان المدنية الحديثة قامت في أكثر الدول على الاشتغال بالصناعة بعد أن كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية وبهذا تغير الوضع الاقتصادي والاجتماعي للاسرة ٠ فعندما كان من صالح الاسرة الزراعية أو الرعوية أن تكون كبيرة العدد مرهوبة الجانب قوية العصبية أما الآن وقد أصبحت الصناعة الحرفة السائدة فتشتت أفراد الاسرة في جهات مختلفة وسنت القوانين التي تحرم اشتغال الاطفال لسن معينة بالصناعة فقد تلاشت الدوافع وتضاءلت الاسباب التي كانت تشجع الرجل على الاكثار من الذرية ٠

والاتجاه الآن في الحياة الحديثة تقضي بالتزام النسل ليتيسر رفع مستوى المعيشة بين الاسرة وامكان رعاية الاطفال رعاية تامة من مأكل ومشرب وملبس وتعليم وتثقيف الامر الذي يتطلب نفقات باهظة وتكاليف مرتفعة ٠

وتساعد الدول الحديثة هذا الاتجاه الآن اذ أن اهتمام هذه الدول من ناحية السكان هو بالكيف لا بالكم اذ يهمها أن يكون رعاياها في مستوى حياة كريمة ذوي صفات عالية من حيث التعليم والقدرة على الانتاج وتحمل المسئوليات ٠

أما المشكلة الثالثة وهي مشكلة عويصة لانها شديدة الاثر في انحلال الاسرة وتداعيها وتفككها ألا وهي الطلاق ٠

ان شيوع الطلاق في المجتمعات البدائية كثير وكلما أخذت البلاد في النهوض وارتقت في سلم المعرفة قلت فيها مظاهر الطلاق ٠ لتبقى على الاسرة دعامتها واستقرارها وكيانها ٠

والواقع أن منشأ هذا الطلاق قد يرجع بنسبة كبيرة الى أمور منها سوء الاختيار وعدم التوفيق في انتخاب الزوجة الصالحة ومن أسبابه أيضا عدم التكافؤ العقلي والذهني وقد يكون منشأه أيضا الكراهية وعدم التعاطف الجنسي أو الاختلاط مع النساء الفاجرات الذين لا يبغون من حياتهم سوى الدراهم والمظاهر الرشيقة ومنها سهر الرجل خارج المنزل الى ساعة متأخرة من الليل فان ذلك ممل لقلوبهن وسبب لارتيابهن ومنها عدم مؤانسة الاهل بالاحاديث اللطيفة ومنها حجز المرأة في البيت ضرارا وضياع حقها المشروع ومنعها من التصرف في أموالها وزيارة أهلها وأقاربها فان النساء اذا شدد في مضايقتهن خشي انفجارهن وعندها لا تنتظر المرأة اذن زوجها ولا ترعى له حقا وعندها تشتت الاسرة المتكاتفة وتتفرق عراها المتواصلة ٠

وقد اختلفت وجهات نظر الدول وقوانينها نحو الطلاق ففي ايطاليا وايرلندا وسائر العالم الكاثوليكي يحرم الطلاق بتاتا ولو أنه في بعض الظروف يحكمون ببطلان الزواج اذا اتضح أن أحد الشريكين قد خدع الآخر فان تكون الفتاة غير عذراء أو يكون الزوج فاقدا للحاسة الجنسية وفي بعض الاحيان تبيح قوانينهم الدينية الانفصال الجسماني فتبقى العلاقة الزوجية قائمة ولكن مع انفصال الزوجين عن بعضهما ٠ أما الاسلام فقد أباح الطلاق بشروط حفظ فيها حق الطرفين وشدد على المسلم أن يستعمل هذا اللفظ العوبة يلهو بها في كل وقت بل أعلمه أن الطلاق لا يكون الا اذا أصبحت الحياة بين الزوجين نارا لا يطفأ لهيبها وشرط له احضار حكمين للفصل بينهما بالعدل دون تحيز لاحدهما ولئن انتشر الطلاق في هذه الايام فانما هو من جراء الجهل باحكامه وميول بعض الازواج الى أهوائها المتتابعة ٠

أما المشكلة الرابعة فهي مركز المرأة الحالي الاقتصادي في المجتمع فاذا خرجت المرأة للعمل وتركت بيتها وأطفالها بدون عناية ولا تربية جعلت في الاسرة انحطاطا في العيش والكرامة وكثيرا ما ينشأ عن هذا مآسي كثيرة لا تكون المرأة فيها قادرة على أن تكون ربة بيت ولا مربية لاطفالها وغير قادرة على ملازمة عملها ٠ وهناك تحدث المشكلة ويقترب شبح الخلاف في الاسرة ٠

وكثيرا ما تتضارب سلطة الرجل على زوجته وسلطان رب العمل على موظفته اذ كثيرا ما يحدث أن تتأخر الزوجة في العمل بأمر صاحب العمل للحاجة اليها والزوج يطلب منها أن تعود في مواعيدها فالى أيهما تستمع وأيهما تطيع الزوج أم رب العمل فللابقاء على عملها بطبيعة الحال تطيع صاحب العمل وتخالف أمر زوجها وهنا قد يتأثر الزوج بكبريائه في مثل هذه المشكلة ويقوم الخلاف بينهما ٠

وكثيرا ما يكون الخلاف في أمر دخلها هل هو ملك خاص لها أم أنه شركة بينهما للانفاق على الاسرة ومن هنا تنشأ الخلافات ويتفاقم أمرها وقد تنتهي الى الطلاق والواجب في مثل هذه الامور كلها أن يفهم كلا من الزوج والزوجة أن الحياة العائلية ما هي الا شركة تعاونية بينهما يتقاسمان فيها السراء والضراء ويتحمل كل منهما نصيبه من الجهد والرعاية في سبيل اسعاد الاسرة وقيامها على أسس تعاونية سليمة ليكتمل لها ظروف السعادة والهناء ٠

ان المشاكل الاجتماعية للاسرة في طريقها الآن في جميع العالم الى الاقلال والانخفاض وذلك بفضل تقارب وجهات النظر ونشر الوعي بين الشباب عن أهمية الروابط الزوجية وقدسياتها وهذا الاهتمام لنشر الوعي الاجتماعي بدور الاسرة ونظامها وحل مشاكلها لا تقوم به الدولة وحدها انما تسهم فيه الجماعات والهيئات والمؤسسات المختلفة ٠

وفي عهد ثورتنا الناهضة نرى اهتماما كبيرا ورعاية شاملة من جانب الدولة بشؤون الاسرة والعمل على رفع مستواها ماديا وأدبيا بل أن دستور الجمهورية العربية المتحدة هدف الى حماية الاسرة ووقايتها بنصوص صريحة في مواده كما تضمن تشريعات بحماية المرأة الموظفة والعمل على تيسير قيامها بواجباتها الاسرية ٠

وقد عملت الجمهورية العربية المتحدة على نشر التعليم وجعله اجباريا في المراحل الابتدائية (بالمجان) ووسعت فيه ويسرته في المراحل الاخرى حتى المرحلة الجامعية وأنشأت المستشفيات والمؤسسات الاجتماعية والوحدات الاجتماعية لتعمل بنصيب وافر على حل مشاكل الاسرة الاجتماعية اقتصاديا واجتماعيا بصرف اعانات ومعاشات اجتماعية للاسر الفقيرة ومعالجة المرضى والعاطل والعاجز عن العمل ومساعدة الحالات الطارئة كالوفاة والطلاق وغيرها ٠

كما أسهمت المؤسسات الاهلية التي انتشرت في أرجاء البلاد لحل مشاكل الاسرة وتقدمت في خدماتها تقدما ملحوظا يسر على الاسر الفقيرة والمحتاجة والمحرومة نفسيا وصحيا واقتصاديا أن تحيا حياة كريمة في ظل وارف من الرعاية الاجتماعية ٠

كما انتشرت معاهد الخدمة ودراسة الاجتماع في الكليات والجامعات مما ساعد على تخريج اخصائيين اجتماعيين يدرسون الحالات الاسرية ويعملون جاهدين على حل مشاكلها على أسس علمية فنية صحيحة بل وعلى العمل على تنظيم المجتمع وتنسيق موارده بالنسبة لحاجاته ٠

كل ذلك أدى بلا شك ويؤدي وسيؤدي حتما الى حل مشاكل الاسرة والتخفيف من أعبائها والتزاماتها بحيث تحيا الاسرة في رغد من العيش وفي رفاهية دون تعسر أو ضيق ٠

ولم تنس الدولة الاطفال الذين بلا أسر فلقد أنشأت الملاجىء والمؤسسات الاجتماعية للذين قست عليهم الطبيعة فحرمتهم من أسرهم اما بالوفاة أو الطلاق أو ما شابه ذلك ٠

كما انشأت الدولة مكاتب الزواج لمن يرغب لبحث حاله والكشف عليه طبيا لمنع انتشار الامراض في الاسر ووقايتها من العدوى ٠ وما ينتج من مشاكل كبيرة ٠

ومن هنا نرى أن الجهود التي تبذل في سبيل خدمة الفرد وخدمة الجماعة في نطاق الاسرة سواء من الدولة أو من الهيئات والمؤسسات الاهلية انما ستكفل بلا شك الى التقليل من مشاكل الاسرة والعمل على اسعادها ورفاهيتها لتشق طريقها في تأدية رسالتها قدما والى الامام ٠ ونشكر الله على ما أعطانا لما فيه خير للصالح العام وخير للاسرة ودبر لها من أمرها رشدا ٠

ونسأل المولى أن يسدد خطى جمهوريتنا لما فيه اسعاد مجتمعنا السياسي والاجتماعي والثقافي

والله ولي التوفيق ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

باهر مدحت

الترتيبات الاخيرة لثورة ايلول في بلغاريا[1]

بقلم : كامن كالتشيف

لم يبق الا بضع دقائق قبل وصول القطار . كان المسافرون قليلين والرصيف خاليا لان العادة لم تكن قد جرت بعد للسفر بالقطار من محطة « بودويني » .

المسافر الوحيد الذي كان في انتظار القطار لبلد فديف كان طويل القامة ، شعره أشقر وكان يرتدي معطفا لونه أزرق قاتم فوق سترة ضابط وحذاء يلمع . وكان بقربه محولان للسكة جالسين يتكلمان بهدوء وانفراج .

كانت الشمس ترسل أشعتها العامودية على المحطة الغافية . كما كانت أشرطة العذراء ترفرف تحت تأثير النسيم الخفيف .

كان المسافر الاشقر يتطلع مرارا الى ساعته . وكانت القاطرة تئن من بعيد اذ ان القطار آت .

وفي تلك اللحظة فتح باب غرفة الانتظار وافسح مجالا لرجل يعدو وهو يصيح :

ـ حضرة المقدم ! حضرة المقدم !

فاستدار الرجل الاشقر بدهشة .

فتابع الشاب الغريب

ـ الا تعرفني ياحضرة المقدم ؟ لماذا تتطلع الي هكذا ؟

فارتعش المقدم وقال :

ـ آه أهذا أنت يابانوف ؟ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ أتيت أبحث عنك . وأنت ؟

ـ أنا ذاهب الى سارايتونو . الى اللقاء . أخشى أن يفوتني القطار . ومد المقدم يده فأخذها الشاب بيده واحتفظ بها وهو يقول :

ـ اصغ الي يا حضرة المقدم .

ـ ماذا جرى ؟

ـ عليك ان تبقى في صوفيا .

ـ كيف ؟

ـ في تلك اللحظة توقف القطار . كان المقدم يتطلع طورا الى القطار وطورا الى صديقه . ماذا جرى معه فجأة !

ـ يجب ان تبقى في صوفيا ! قالها بانوف مصرا

(۱) من كتاب « ابن طبقة العمال » ـ حياة جورج ديميتروف .



دون ان يترك يد صديقه .

ـ لماذا ؟

ـ لقد كلفت ان ابلغك بعض الاشياء ..

فتطلع المقدم بقلق الى ساعته ثم الى القطار ثم قال بفارغ صبر :

ـ انك تمزح أليس كذلك ؟

فأجاب بانوف :

ـ أبدا ! لقد تلقيت أمرا بابقائك في صوفيا . انها قضية بالغة الاهمية .

ـ ولكن أي قضية ؟

بعد ان تطلع بانوف حوله ، خفض صوته وقال :

ـ تكلم بهدوء • تعال معي ولا تسلني أي سؤال الآن سأشرح لك كل شيء ولكن ليس هنا • أتفهمني ؟ هيا تعال !

بقي المقدم حائرا • وقد ازداد شحوب وجهه الاشقر بينما كان يظهر وكأن عينيه تتردد • وفجأة شق صفير القاطرة الهواء •

فتأبط بانوف ذراع صديقه وقال :

ـ هيا يا حضرة المقدم !

وأخيرا استقر رأي مقدم الاحتياط تودوروف على أن يؤجّل ليوم آخر سفره الى سارانيوفو حيث وجد له عمه وظيفة • وخلال ذات النهار استغنى عن كل عمل ليتبع طريقا جديدة •

أقتيد المقدم الى بيت شخص يدعى ايفانوف حيث اطلع على المهمة الملقاة على عاتقه •

لقد قال له ايفانوف :

ـ أيها الرفيق انك ربما لا تجهل بأن الرفيقين جورج ديمتروف وفاسيل كولاروف قد اختبآ ليعملا بالخفاء •

ـ أعلم ذلك ••

ـ وربما تعلم أيضا بانهما في خطر

ـ هذا أكيد

ـ أنت تعلم بأن الشرطة الفاشية تبحث عنهما في كل مكان •

ـ بكل تأكيد

فتفرس ايفانوف بالمقدم • لقد سر من أجوبته المقتضبة • فتابع ايفانوف •

ـ اذن علينا ان نعمل ما في وسعنا لمساعدتهما •

لقد كان تودوروف يتطلع أمامه وهو يفكر دون ان يزيد أي كلمة وهذا مما أسر أيضا ايفانوف اذ كان واضحا من أن المقدم كان يتفهم الموقف •

وتابع ايفانوف قائلا :

ـ ومع انك لست عضوا في الحزب فاننا نعتمد عليك ، فقضيتنا قضية الشعب •

ـ هذا لا يدعو للشك • هل يجري اللقاء اليوم !

ـ نعم

ـ اذن هلم !

ووقف المقدم منتصبا • لقد كان طويلا حتى أن رأسه كاد يصل الى سقف الغرفة المنخفض •

فسأله ايفانوف بدهشة •

ـ أنت اذن مستعد ؟

فأجابه المقدم باقتضاب :

ـ كل الاستعداد

ثم توجه نحو الباب فتبعه ايفانوف • فنزلا الدرج الضيق والحجري وخرجا الى الشارع •

كان الوقت مشارفا الظهر : فتوجه الرجلان نحو حانوت صغير في شارع بيروتسكا كانت تزين واجهته أشرطة مزيحة والعاب مطاطية • ابتسم لهما بلطف رجل عجوز جالس خلف منضدة تحتل كل الحانوت تقريبا •

فبادره ايفانوف قائلا :

ـ صباح الخير يا جدي •

فابتسم العجوز مجددا كما كان يبتسم لزبائنه •

فتابع ايفانوف :

ـ هل العمة فكتوريا في البيت ؟

ففتح البائع فمه الذي لم يفقد أسنانه وقال :

ـ بكل تأكيد • تفضلا أيها السيدان • قال هذا وهو يزيح الستار الاحمر • مر ايفانوف وتودوروف خلال الستار وصعدا سلما خشبيا ضيقا ثم توقفا أمام باب • فخدشه ايفانوف الذي كان يسير في المقدمة • وبعد لحظات سمعا صوت خطوات شخص قادم • فمد المقدم وايفانوف اذنهما الى الامام • فتح الباب بهدوء وظهرت امرأة وجهها صارم وصافي وشعرها مجعد فقال لها ايفانوف :

ـ صباح الخير يا سيدتي • هل أستطيع التكلم مع السيدة ايميليا ؟

فاجابت السيدة وهي تفتح الباب على مصراعية :

ـ بكل تأكيد • تفضلا وادخلا •

وافسحت لهما المجال ليمرا •

دخل ايفانوف وتودوروف في الحجرة المظلمة الكبيرة • كانت تغطي أرضها سجادة سميكة بينما كانت عدة كراسي منجدة بالمخمل مصطفة حول الجدران • أما النوافذ فقد كانت مخفية تحت ستائر كثيفة •

أجال المقدم بنظره في المكان • أزاحت المرأة لوحة ضخمة تمثل عطيل وهو يقتل دسديمونا ثم قالت :

ـ ادخلا أيها الرفيقان •

فمر الرجلان في غرفة أخرى أكبر من الاولى كان يتسلل منها النور خلال ستائر مخملية • وفي زاوية منها كان يلمع ضوء كهربائي أحمر •

قالت لهما المرأة :

ـ انتظرا قليلا

ثم اختفت • فتطلع الرجلان الى بعضهما وابتسما •

فسأل المقدم

ـ ما هذه الالغاز ؟

وفي تلك اللحظة فتح باب ضيق في مؤخرة الغرفة ودخلت منه عجوز قصيرة ترتدي السواد • ربما هي

السيدة ايميليا .

فسألها ايفانوف

ـ هل يستريح الرفيقان ؟

ـ كلا انهما مستيقظان !

ـ قولي لهما باني أود مكالمتهما

ـ تستطيعان الدخول . انتظر فقط لحظة .

ثم استدارت وأختفت في فرجة الباب الصغير المظلمة لتعود بعد لحظة وتقول :

ـ ادخلا .

فانسل الزائران من الباب الضيق ودخلا ردهة كبيرة كان يجلس وسطها خلف طاولة ملأى بالصحف ، ديمتروف وكولاروف . وكانت نشرة مفتوحة ملقاة على كرسي .

فانتصب الرجلان وشدا أيدي الزائرين وهما يبتسمان .

ثم قال ديمتروف وهو يشير الى المقاعد :

ـ أجلسا أيها الرفيقان

وسألهما كولاروف :

ـ هل أنتما متعبان ؟

ـ فاجابهما تودوروف مبتسما

ـ بالتأكيد لان الطريق طويل الى هنا .

كانوا كلهم يسمعون ضوضاء الشارع أصوات المارة وضجيج السيارات وصياح الباعة . كان النور يكاد يدخل خلال الستائر الكثيفة .

فلملم ديمتروف الصحف المبعثرة على المقاعد ووضعها على الطاولة ثم جلس بالقرب من تودوروف وقال له :

ـ أتستطيع أيها المقدم أن تساهم في ثورة ؟

فأجابه المقدم :

ـ نعم اذا كانت متقنة الاستعداد .

ـ انها مهيأة

ـ ولكني بحاجة لاسبوعين لأستعد أنا

ـ وماذا تستطيع أن تعمل بثلاثة أيام ؟

ـ لا شيء

ـ لا شيء ؟

ـ لا أستطيع عمل شيء .

ثم تابع تودوروف بصوت واضح :

ولكن اذا اقتضى الامر سأساهم بالثورة كجندي بسيط . أنا أحبذ الحزب الشيوعي وصديق الاتحاد الزراعي لاني فلاح .

فقاطعه ديمتروف قائلا :

ـ أعلم ذلك منذ كنت أعمل في برلين

فتابع المقدم :

ـ نعم لقد عملت مع الحزبين

سأله كولاروف :

ـ متى ؟

ـ عندما تم تأسيس الاتحاد الشعبي لضباط الاحتياط . ثم ساد الصمت . لقد كان ديمتروف يفكر . ثم قال :

ـ حسن ستكون تحت تصرفنا .

فأجاب تودوروف :

ـ طوعا .

فانتصب ديميتروف وقال :

ـ اذن الى اللقاء أيها الرفيق تودوروف

قام الزائران وودعا ديميتروف وكولاروف وتوجها نحو الباب . لقد كان الشارع يغص بالناس تحت أشعة شمس الخريف . فاختلط ايفانوف وتودوروف بالجماهير واختفيا .

يحدثونك من القلب

بقلم : اسماعيل محفوض

لقد هاجني قعود الادباء عن تبيان مناحي الجمال في (يحدثونك من القلب) . فانطلقت وانا الفتى الغرير أرسم خطوط انفعالاتي تجاه امعاني به .

فهو يخاطب منا القلب واللب ، ويطوينا عطفا ، ويروعنا جلالا وخسفا . انه يبداؤك بالفن منذ الكلمة الاولى :

في ضاحية دمشق ، في مخيم اللاجئين ، جلس الزوج وزوجه أول الليل يتحدثان في الغلس :

الزوج : ليتك ترسمين

الزوجة : ليتني أرسم

الزوج : أرسمي

الزوجة : حاولت أن أرسم ، وكررت المحاولة ، وها قد انقضت سنتان على النكبة ، ولم أستطع أن أرسم ظلا موحيا أو خطا مبصرا .

الزوج : كانت لوحاتك رائعة يوم كنا في بلدنا .

الزوجة : « في يأس » كانت رائعة ..

الزوج : أين ذهب ذلك الفن الغزير ؟

الزوجة : ضاع .. جف .. غاض ..

الزوج : « في ابتسامة ساخرة » غاض يوم احتجنا اليه .

الزوجة : نعم ! .. فقد كان النبع يجري يوم كنت أرسم نفسي ! .. أما اليوم ، فاني واياك نبحث في الرسم عن الدرهم والدينار .

يصمت الزوج ، ويبدو عليه وجوم يغرق فيه بين الصحو والذهول وبين اليقظة والغفلة ثم يقول :

ليتنا ذكرنا لوحاتك يوم الرحيل .

الزوجة : ليتنا ذكرناها .. ليتها كانت معنا الآن .

الزوج : كيف نسيناها ؟

الزوجة : لقد مر ببالي الذي مر ببالك ، فاهتززت وارتعدت ، ثم قلت في حيرة : كيف نسيناها ؟

الزوج : ظننا رحلتنا غيبة لا تطول .

الزوجة : كانت ساعة الفراق هولا وكربا .

الزوج : ولم نحسب للصور ثمنا أو ريعا .

الزوجة : ولم نحسب انها قادرة على ان تخلصنا من الحرمان وتدفع عنا اللجوء الى مخيم اللاجئين .

الزوج : ولم يخطر لنا ببال أن الفن يذهب ويجيء ، يتحرك ويهمد ، ينبع ويفيض ثم يجف .

الزوجة : قلت لك : انني كنت أصنع الفن للفن ، ولم أكن أصنع الفن للمال .

الزوج : تفرجي .. تناسي .. تذكري .. اسهري لعلك تسترجعين ريشتك .

الزوجة : تفرجت ، تناسيت ، تذكرت ، سهرت ، ولكنني لم أستطع أن أرسم .. فخطوطي ندوب الجراح ، وظلالي يحوطها بياض الاكفان .

وانهما لكذلك ، تدخل عليهما لا جئة ، تستعير صحنا من الطحين ، فتأخذه ثم تذهب ! . فتبدو الزوج هامدة ، تنظر ولا ترى ، ويحدثها زوجها فلا تجيب .. فيصرخ الزوج فيقول :

ماذا دهاك ؟

الزوجة : ألا ترى كيف يعيش جيراننا اليوم ، وأنت تعرف كيف كانوا يعيشون بالامس ؟

الزوج : ألا ترين كيف نعيش اليوم ، وأنت تعرفين كيف كنا نعيش بالامس ؟

الزوجة : « بصوت خافت » هذا الذي غير علي نفسي ، حتى كأن معيني قد نضب ، وحتى كأن أزهار حياتي قد ذبلت .

الزوج : « في ابتسامة حنون » لا تتغير النفس ، ولا تذبل أزهار الحياة ، ما دام الينبوع حيا .

الزوجة : وأين هذا الينبوع ؟

الزوج : أنت .. أنت ينبوع الحياة في الفن .

الزوجة : هل هذا هو الصحيح ؟ .. نعم ! .. كان الفن هادئا مطمئنا يوم كانت حياتنا هادئة مطمئنة .. كان يعرض صوره على قلبي صورة بعد صورة ، يوما بعد يوم .. وكانت كل صورة تسكن في خيالي وحدها بطولها وعرضها، فلا تنازعها مسكنها صورة أخرى ، حتى تستوفي عمرها وحياتها ، وحتى تكون قد تمكنت مني، وحتى أكون قد أدركتها تمام الادراك .. أما اليوم فقد أضحى الفن صاخبا عاصفا مصطفقا .. لقد صار اليوم سيلا يتلاطم بين الجوانح والضلوع .. صار عددا لا يحصى من صور

مزدحمة متصارعة ! ٠٠ فالدار التي تركناها ، والطريق التي سلكناها ، والناس الذين رأيناهم ، والهول الذي انطوت جوانحنا على كربه وعذابه ، والمخيم الذي صرنا اليه ٠٠ هذه وحدها سيل ، بل غمر من الصور يموج، يضطرب ، يستبق ، يريد أن يرى الشمس والقمر يريد ان ينقض على الريشة ، في ازدحام في تشابك ، في تداخل ٠٠ فتجيء الصورة خطوطا غافلة ، يراها الناس غفلة أطفال ، وأرى في كل نقطة منها النور والنار ! ٠٠ وما غناء الصورة اذا كان الناس لا يرون فيها الا السواد أو البياض ٠٠ لقد سلبني من حيث لا أشعر ، انه يكاد ينسيني ما أنا بصدده من كشف عن المضمون ٠ لقد أذهلني ، لقد جمع وعي ذاكرتي حتى تحسست ، لقد أصابني الذهان ، لقد أغمض عيني كي يرجعني الى العقل الباطن لا أدرك معنى هذه التصورات التي أظن أنني أعيها وعيا مستسرا ، مبهما ، مطلسما ٠ انه يجعلني أستعلي الى اللامحسوس من خلال محسوساته ٠

فمعذرة ان اوجزت في الروي ، ولفتك الى احساسي ، وما جعلتك تأخذ حصتك أنت من درجة هذا الاشباع ٠

أريد أن يفهم القارىء ان اللفظة المألوفة ، الذائعة الصيت ، ولا أقول المبتذلة ، هي التي تستطيع أن تستنفد احساس الاديب ، كما انها أقدر من الالفاظ المهجورة ، الحبيسة على نفسها ، الغامضة ، على دفع مشاعرنا الى التداعي ٠ وكثرة استعمالنا اياها في حياتنا اليومية حددت معانيها ، فتلونت في نفوسنا على شكل شحنة عاطفية ٠ فأي بيان أبلغ في النفس ، وأقوم على فهم الجمال من حديث النفس الطبيعي ، بكل بساطته ، وسذاجته ، بكل عمقه ، وانسراباته ٠ فاللغة التي نتحدث بها للتفاهم هي من كمال وجمال البيان نبلا وشرفا ٠ انها لغة العواطف التي لا تتكلف ٠ وأقدر الادباء من حاكى ببيانه بيان النفس ، وهل الفن الا اداة تعاطف وتفاهم ، ايماءا ووضوحا يروي انفعال النفس ، دقائقها ، همساتها ٠ ؟؟

فدلالات الفاظه واعية ، كل لفظ عنده يرسل أمواجا متعددة من المعاني والايحاءات ، ومن التقاء هذه الامواج نشرف على بيان تارة مزبد الامواج صخابها ، حتى يصل الى حد الروعة وتارة يهبط بمستوى النفس الى الحضيض ، حتى ليجعلنا نحس ان العالم خلق شقيا بالطبع ، مأساة تغلفها مأساة ٠ ويزيد هذه الدلالات جمالا تناسقها الضميم وتآلفها الرصين العميق ، وائتلافها الهادىء المطمئن ، واداؤها المحكم ، وتجانسها النسبي الاضاءة ٠ فالفكرة لقيت عنده التعبير المطابق لها ، والصورة ملأت شكلها الملائم ، وكأن الالفاظ على قدود المعاني ٠ انه نسيج وحدة من التأليف والدلالة ٠ جمع ضروبا ثلاثة من القيم الجمالية البيانية : روعة التصوير، وقداسة المعنى منسكبا بدقة التعبير ، ومأساة النفس المعذبة ٠

وأكثر ما استوقفني اصالة طبعه ، وكمال تذوقه في اتيانه بكلمات معبرة ، لكل كلمة حادثة لا تستوفي شرحا ، نلمحها لمحا مبهما « ضاع ٠٠ جف ٠٠ غاض ٠٠، تفرجي ٠٠ تناسي تذكري ، يموج يضطرب ٠٠ يستبق » والبلاغة المتدفقة تأتي من ان بعض مترادفاته تضيف كل منها معنى جديدا على التي قبلها ٠

فاذا ما امعنت وأحسنت البصر خرجت الى انه يضع في مقطوعته ماهية الفن والعوامل المؤثرة فيه بلفظ بالغ السهولة بالغ الاثر ، بالغ الجرس ، بأسلوب أدبي صاف ، متسلسل ، لا يشوبه التعقيد الفلسفي ولا المصطلحات التي تعمي الذهن عن تصور الفكرة ، بحدودها التي وضعت لها ٠

بحث عن الصدق في التعبير ، والصدق في المضمون، اذ لم تكن قصص اللاجئين قصصا ميتة بل هي حية ، عامرة بالاسى والالم ، فحرك هذه الحيوية ، وجعلها تنبض بنبض الحياة في لوحات فنية ٠٠ لوحات ما كانت يوما لوحات مناسبات ، بل لوحات متجددة ، الحسن في كل منها معاد مردد وكلما تأملت ، رأيت محاسن أخرى جديدة تتولد ،٠ انه لا يروي قصص اللاجئين فقط بل يروي قصص الانسان والانسانية ٠

كل منا اذا رجع الى نفسه أثناء قراءة احدى القصص ، خال ان القصة قصته ، وقصته وحده وان الكاتب تقرى نفسه كما هي ، وهذا دليل النبوءة في البيان ، حيث جاء على لسان أحد المسيحيين عندما استمع الى تعاليم المسيح ، انه كان يشعر وكأن المسيح يراه بعينيه ويعنيه بشخصه ٠

واقسم أنني ما سمعت قصة من هاتيك القصص من على شفتي متذوق ، قد انتقل الانفعال الى عينيه وحلقه ، الا وغبت في عالم الوهم ، عالم الصور المهوشة ، وزفرت زفرة « ما تطيقها أضلاعي » وبذا غدوت أجزم بان الدموع لا بد وان تكون قد قاطعت المؤلف مرارا مكرورة ٠

وأقولها قولة حق في منهج الصدق : ان للادب خطا عاما يسري به ، اذ انتقل من الجمال الاتباعي الى الباروكي، حتى وصل الآن ٠٠ الى المذهب النفسي ٠ فعبر عن مكنونات النفس بأقصى خلجاتها ٠ والاديب الفذ من جعل أدب عصره يتماشى وتطور الادب مع الزمن والنفس المبصرة الاديبة ، المهتزة اهتزاز الغصن هي وحدها التي تتمكن من هز نفوس الآخرين تدفعهم الى الامام « لا تلحقهم استكانة ولا وهن » ٠

انطفاء اللؤلؤ

قصة بقلم : علي بدور

شمس الشتاء ، تنفذ بأشعتها الى القلب ، فيصيبه جذل ومسرة في صفاء الخمرة المعتقة . ولولا توالي الفصول لما تأكد البشر من بهجة الشمس في فصل الشتاء وانها البلسم الذي يقي حياتهم من جمد الطبيعة وعنت المناخ. وفي هذه الايام المشمسة يبدو لي أكثر لذة من القعود حول مدفأة عامرة ، أن أنطلق في الشوارع والحدائق ، لانعم بما توحيه الطبيعة في الشتاء وما يمكن أن يكسبه الانسان من جراء جولة يتحرك فيها دمه ، ويمتع أنظاره بالنعيم الذي تفيض به وجوه النساء . ويبدو لي ذلك أكثر جمالا اذا كانت هذه النزهة بناء على موعد مع فيوليت .

لم تكن فيوليت عندما رأيتها لاول مرة مجرد فتاة كغيرها من الفتيات . كان في وجهها عبق النعاس المتواصل من كثرة السهر ، وحول عينيها تحلق طيف دخان سيجارة معطرة وفي قوامها الرياضي الملتف ، استقر هدوء ولكنه متحرك أبدا ، مع انطلاقة صريحة ، لا تختفى خلف حجب من خفر كاذب أو حياء مصطنع ، بل دأبها دائما أن تفصح عما في قلبها سواء باللسان أو باشارات ترتسم على وجهها ، اشارات مقروءة ، عمادها الابتسامة الدائمة، والحياة المتجددة أبدا .

كانت شخصية فيوليت ، واضحة مميزة ، دون أن تقف الى جوار ملايين النساء ، كما تقف سيارات الاجرة بعضها خلف بعض وكانت تبدو وقد قاربت الثلاثين ، أكثر فتاء وحيوية وألطف معشرا وأعمق تجربة وأصفى مزاجا ممن عرفت من النساء . وكان يبدو لي كلما رأيتها يوما بعد يوم انها تتيح لعظمها أن يكبر وأن يتسع وأن يستوعب دون أن تدعه يتغذى بدم القلب . وكان شبابها في ربيع قلبها الفتي لا يطفي على ما اتخذته من تجارب أيامها وخبرة زمانها ، واتصالها العميق الصافي بالناس على مختلف الطباع والامزجة .

حدثتني نفسي يوم أول يوم لقيتها فيه بأن هذه هي الفتاة التي كان خيالي عندما يتجرد من واقعي يبدأ بصنعها على مهل : دقة فهم ، وعمق نظرة الى الحياة ، مع ضبابية عاطفة ليست صريحة على كل حال وانطلاقة خيال مجنح في رحاب الحياة والكون . وكنت أشعر وأنا أقضي معها أسبوعا في مناسبة اجتماعية ان فيوليت هي الفتاة التي قد تتيح لها ظروفها وفكرتها عن الحياة التي أتيح لي أن أعرفها من خلال أحاديثنا وابان لقاءآتنا ، أن تمضي معي في تجربة .. من هاتيك التجارب التي يعد لها الشباب كل العناصر الضرورية للنجاح .. أسبوعا بعد اسبوع ، وشهرا بعد شهر !!

لم تكن الظروف تسمح وهي دائما في صحبة زميلاتها ، أن أوجه معها شراع القارب في طريق تعرف بحدس الفتاة الخبيرة انه يؤدي الى طريق خلوية . ولم يكن أمر الدخول مباشرة في مثل هذه المغامرات بمنجاة من تكسر القارب وتمزق الشراع . ولعلي وقد اقتنعت ، فقد بت أنشد فرصد مواتية عمادها التلاقي العفوي في الطريق .. ثم دعوتها الى فنجان قهوة ، او قدح من البيرة !!

عصر يوم اثنين . ودور السينما تجدد ثيابها الاسبوعية فتبدو في حلة أنيقة غامضة لا تشف عما تحتها وبخاصة لرواد حفلة الاثنين الاولى بعد الظهر .. يسرني في مثل هذه المناسبة أن أرود احدى دور السينما ، على شدة غموض ما تعرضه ، فانه في قلبي ملذ ، ولعيني مثير . وتشاء المصادفة أن يكون الفلم المحبب قد سبقني اليه عشاق الغموض . ولا يكون أمامي بد من أن أمضي في شارع الجلاء ، وحيدا ، وعلى خط منفرد ، دون أن يرافقني أحد . وبين عجب الخط ، وحسن اللقاء ، أجدني على استعداد بهيج للسلام على فيوليت والحديث معها ودعوتها الى فنجان قهوة ، أو قدح من البيرة عند « السماحي » .

هذه فيوليت أمامي . وبين يديها قدح البيرة وفي شفتيها سيجارة لست أدري أفيوليت تمتص رحيقها أم السيكارة ترتوي وحدها من روح فيوليت المتحلية في شفتيها ، فتذوب شيئا فشيئا من هذا الالتقاء المستمر ؟! وشعرت بالاضافة الى كل الرؤى والاحلام التي أخذت

تراودني من جديد ، ان دنياي هذه المصغرة في غطاء الطاولة النظيف ، تأخذ بالاتساع حتى تلفني في فيافيها وبحارها وسهولها وجبالها ، وان هذا الفضاء اللامتناهي من المودة والعاطفة المقدسة ، يجسم لي صورة فيوليت حتى تبدو في شكل السماء اذا فاضت ، والارض اذا غطاها الربيع بثوبه الاخضر وما أنا في خضم هذا العالم السحري الغريب سوى نسيمه الذي يحمل عطره وشذاه ٠

انني انسان أخشى الحب الصادق بكل قواي ٠ لانني وقد أحببت ثلاث مرات ، فقد تألمت ثلاث مرات ٠ وبت مصمما ـ ما دمت أستطيع ـ أ لا أكرر الخطأ مرة رابعة ، ولذلك أجدني في بعض الاحيان أنطق بما لا أؤمن به ، وادع من كانت تستمع الى هذه الكلمات تصدقها على أنها صادرة من القلب ٠٠ ومن القلب وحده ٠ كان هذا سبيلي الذي سلكته في المرات الثلاث ٠ ولكنني كنت في النهاية أجدني مسوقا الى الحب الصادق ، والى الاخلاص فيه حتى النهاية ، كانت الجلسة قصيرة ، لم تطل أكثر من نصف ساعة ٠ تعمدت ذلك ، لئلا تظن فيوليت أنني أقصد أشياء كثيرة غير الجلوس والحديث العادي عن الطقس والحياة والناس ٠ وبدت لي فيوليت من جديد على الرغم من حرصها وخبرتها ومدى اطلاعها على طباع الشباب ، قد وقعت في شرك حريري ، فاتفقنا على موعد لقاء ٠ انه الموعد الاول في قلادة المواعيد اللؤلؤية ، حيث أراها بعد أربعة أيام ، الساعة الثالثة بعد الظهر في مقهى البستان الكبير !!

كانت روح فيوليت هذه المرة روحا جديدة ٠ هي تحب المرح ، والنكات ، والاحاديث الشيقة ، وتعشق التأمل ٠ وكنت بكل وسعي أحاول أن أشبع هذه الافواه النهمة من نفسها الحافلة بالاسرار ٠ وكانت تبدو لعيني أشبه بالثمرة التي تزداد جمالا ما دامت معلقة على غصنها لم تقطف ٠ وخطر لي أن أسألها :

ـ بماذا تحسين يا فيوليت ؟

فاجابتني بابتسامة رائقة :

ـ بنفس الراحة التي تحسها ٠٠

وخيل الى أن فيوليت تفتح لي نافذة جديدة على الحياة كانت مغلقة ٠ انها تضع أصبعها على عقدة النقص في حياتي كلها ٠ انني انسان محروم من الراحة ٠ الراحة التي يحس بها الانسان عندما يجلس الى انسان آخر ٠ انسان يحبه ٠٠ وخطر لي انني أتعجل النتائج التي لم أكن أنا مستعدا لها ٠ فسألتها ثانية :

ـ فيوليت ٠٠ هل تعجلت هذا اللقاء ؟

ـ وأنا سوف أحاول أن لا يسرع في الذهاب يا منير ؟

ثم شاءت أن تبتسم ٠٠ وشئت أن أرد لها الابتسامة في نظرة صافية :

ـ لن يكون لك بعد اليوم مفر ٠ اننا في جزيرة صغيرة ٠٠ والمحيطات من حولنا !!

مضت ساعات أحسبها ثلاثا ، في أحاديث ، بعضها عني وعنها ، وبعضها عن الحياة والشباب ، وأيامهم ولهوهم وآلامهم ٠ وقد بدأ لي أن تردد فيوليت ، ورغبتها بين الفترة والفترة أن نكف عن دخول الاتون ما دمنا نستطيع أن نختار طريقنا ، لهو أجدى لنا ، وأحسن عاقبة ٠ وبدت لي وهي تحاول أن تقنعني بجدوى بقائنا أصدقاء ٠٠ انها تشجعني ، بل وتشجع نفسها ، من شيء توده ٠٠ ولكنها تخشاه ٠ ان الخشية اول الحب ٠ وكان شعوري حيال فيوليت التي كانت تتردد في اعطاء موعد آخر ، هو الذي فتح لي قلبي على مدى الجمال الذي يحسه كل منا ، في وجود الآخر تجاهه ، وشعوره بالراحة معه ٠

ثم كان اللقاء بيننا ٠٠ انني لثالث مرة أشعر انني انسان خلو من شهواتي ٠ وانني محض عاطفة صادقة وطهر ليس له حدود ٠ وكنت خلال الايام الثلاثة الاخيرة التي مضت على تلاقينا في مقهى البستان الكبير ، أعد الدقائق ٠٠ والساعات وابصر الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر ، من خلال الليالي الثلاث السوداء ٠٠ ومئات الملايين من الاشعة التي كانت تزيد جلاء هذه العاطفة المشتركة غموضا والا فما بالنا لا نستطيع أن نجده في الشمس ، فاذا حدقنا وجدنا ظلمة تلتهب !!

هذه المشاعر كلها جعلتني أتحسس طريقي خشية الانزلاق بينما هي تنير لي الطريق مرة ، وتدعه يظلم مرات كلما أسبلت جفونها على مصدر النور ٠٠ ولكن فيوليت هذه المرة لم تتركني وحيدا ٠٠ انها أرادت أن تتأكد من جميع نواياي ، فسألتني ـ وأنا شارد في طريقي الجديدة ـ ونحن في أخريات جلستنا المتعة :

ـ كيف تريد أن ترتبط بفتاة رأيتها مرة أو مرتين ٠٠ دون سابق معرفة حقيقية ٠ أرجوك يا منير أن لا تجعل من الصدفة ، قدرا محتوما ؟

ـ لست أدري يا فيوليت كيف أوضح لك ٠ ولكنني باختصار أود أن أقول لك ٠ انك اليوم عندي كل شيء ٠ ان الصدفة في الحقيقة هي قدر محض ٠

أو لسنا اليوم في مسرة وهناء . ترى ما هو الحب اذن ؟!

وفي أسى الراهب وانكسار الطائر .. أسندت فيوليت رأسها الى جماع يديها وشردت أكثر من دقيقة ..

فلما سألتها :

ـ ما بك يا فيوليت ؟

أجابتني والدموع تترقرق في عينيها .. منهمرة في تسارع محرق :

ـ انني حائرة يا منير . أأمضي معك أم بدونك . أرجوك أن تفهمني جدا .. وتفهم ظروفي . ثم قدر ما يمكن أن يطرأ على علاقتي بك في مستقبل الايام ؟

كان للؤلؤها المنطفىء على غطاء الطاولة وقع النار في قلبي . ان فيوليت توشك أن تطير .. من بين يدي . لعله الذنب الذي ارتكبته منذ الموعد الاول . كان يجب أن أشعرها انها لم تعد تستطيع أن تفكر بعيدا عما أفكر به .. وانها اذا أرادت أن تطير في غفلة عني ، وجدت أن جناحيها ، مقصوصان .. دون أي ألم !!

افترقنا على موعد فاتر . بعد أن تجولنا بعض الوقت في شوارع مقفرة .. واغتنمتها فرصة مناسبة لتقبيلها فلم أفلح . لانني كنت كلما حاولت ذلك ، كانت سيارة مسرعة تفوت علي فرصتي المفضلة . وكانت فيوليت مضطربة بادية الارتجال في تصرفاتها . ولعلها شعرت ان الظروف ليست مناسبة لان نمضي في تجربة فاشلة ، تجربة كانت تريدها أن تحدث رغم كل شيء.. فضربت لي موعدا بعد أربعة أيام في ذات المكان ..

وافترقنا على أن نلتقي .

مضى يومان من الايام الاربعة . ذات صباح دخل علي موزع البريد يحمل رسالة لي . كنت منهمكا في اعداد تقرير عن سير العمل في الدائرة ورئيسي المباشر ينتظرني على أمل منه أن أنهيه بسرعة كي يقدمه للمدير . كان المغلف رماديا .. وكان الخط بسيطا .. لعله خط فيوليت ، فلما فضضت الرسالة تأكدت انه خطها. فقرأت :

« عزيزي منير

لن أبدأ كلمتي اليك بالسؤال عن صحتك وأنا أعلم أنها جيدة !.. انما لاقول لك : بأنني لن أحضر الى الموعد .. وسوف لن أحضر مطلقا .. لا تتسرع وتسأل لماذا ؟ وانت الذي سألتني مرارا عن شعوري نحوك .. وكنت دائما أهرب من الجواب . والآن ياصديقي سأكون صريحة بقدر استطاعتي وأشرح لك الاسباب .. والاسباب عديدة . وأنا حيرى بأي منها ابتدىء ؟ قلت لك انني أفضل أن تبقى صداقتنا صداقة .. وأن لا تتطور الى أكثر .. واذا بها ، سائرة يا صديقي وعفوا ، في طريق أنا عطشى للوصول اليه .. لكني لا أريد ولن أريد أن أرتوي منه .. ومهما تكلم قلبي .. فانا حاكمة به ما زلت حية ..

لا تتعجب يا صديقي .. قلت لك مرارا بأن حياتي كانت سلسلة آلام .. وهل تريد أن تكون سببا في اطالة هذه السلسلة ؟ سوف تسأل كيف هذا ؟ .. وأنا لا أنوي لها الا كل السعادة ، فأعود وأقول : يمكن أن نحب بعضنا كثيرا .. وحتى العبادة .. ونفكر أيضا بخاتمة جميلة لهذا الحب .. انما يوجد المجتمع ، وحكمه علي أنا .. ثم أهلي .. وأهلك .. والدين .. بربك قل لي هل أنا مخطئة ؟ .. أظن لا .. وأنت أيضا ، تؤكد ظني .. سوف تتألم وتتأثر من رسالتي .. لكن أول الالم أهون من خاتمته ، ونحن بعد ما زلنا في بداية الطريق ..

على كل سنبقى أصدقاء .. انما من بعيد لبعيد ، وللحاجة . ولن تجرب أن تراني مع كل جرأتك التي أحبها وأقدرها .. وان أردت أن تكتب لا مانع . أختم رسالتي بألف .. فيوليت »

ان فيوليت تمضي وحيدة . وتبقيني وحدي . انها التجربة الرابعة في حياتي . تجربة فاشلة تبصرني بالمستقبل الذي يجب أن يكون خلوا من التجارب .. والتجارب الفاشلة بصورة خاصة .

رغم رسالتها .. فقد ذهبت . وبقيت أنتظر حضورها رغم كل شيء .. ولكنها لم تحضر . كان مقهى البستان الكبير ينتظرنا . وكانت المنضدة والتي كنا نجلس حولها كل مرة فارغة ، وكان الخادم يبتسم لي كلما مر بي ، حاملا طلبات الرواد الذين انتشروا حولي .

ولكن بعد أن مضى ساعة على الموعد ، وفيوليت لم تحضر بعد ، تأكدت أنها جادة ، وانها لا تعرف المزاح .. لقد طارت فيوليت بجناحين كاملي الريش . والى اليوم وقد بقي لي منها هذه الرسالة ، أقرأها بين الحين والحين ، فانني عندما أصل الى ختامها أحار في مدلول هذه الالف التي ختمت بها رسالتها أهي :

الف قبلة ؟

أم ألف وداع ؟

أم ألف دعوة لقاء رغم انها لم تحضر الموعد الاخير؟!

حلب ـ علي بدور

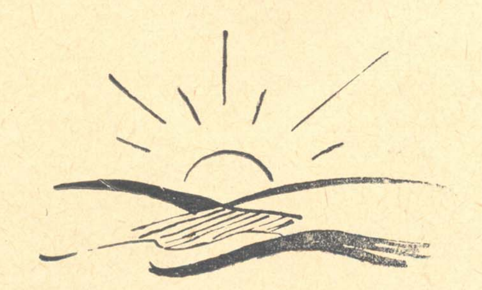
برلين بين عامين

وهبطت الطائرة في مطار برلين ، وكل ما أذكره آنذاك أن صحبي قد تجمعوا ليردوا السلام على من كلف باستقبالنا ، وليشيرا لي أحدهم بأن أحصي أمتعتي بعد أن أنزلت من الطائرة . كانت كل هذه الامور تجري وكأني بعيد عن صخب المسافرين وابتسامات المستقبلين ذلك لاني ضعت في دوامة الذكريات ، ذكريات ليست بعيدة عني فمنذ عام أو يزيد نزلت هذا البلد ، أجل هذا البلد دون سواه ، دخلت برلين في العام المنصرم فذهلت بعودة الحياة اليها كأحسن ما تكون الحياة بعد أن لاقت من ويلات الحرب ما لو حل ببلد آخر لمحاه من الارض ، وبكيت في قسمها الشرقي للحضارة وقد أطاح بها أدعياء الحضارة . ولموت الحرية تحت سيطرة أدعياء حرية الشعوب .

وحملتنا السيارة الى الفندق وظننت أن الزمن كفيل أن يخفف من الدهشة ويقل من الحزن وعام قد مضى ـ وليس العام في عمرنا بالشيء اليسير ـ وما كاد يشرق نهار الغد حتى وجدنا السيارات بانتظارنا لزيارة برلين الشرقية ، وهناك وفي تلك اللحظة آمنت أن من المصائب نوعا لا تمحو آلامه السنون مهما طالت وآمنت أن من النكبات ما يتضاعف أثرها في النفس كلما خطرت ببال المرء ذكراها ، أو كلما وقعت عينه على ما يذكره بها . وقفت بين الانقاض ، انقاض حضارة كنت اسمع نحيبها في كل بقعة من بقاع هذه الارض ، فتخيلت دموع العزيز أذله الدهر ، والاسد الجريح تتقاذفه الذئاب الهزيلة . ويقبل المرافق الشاب بابتسامته الوادعة ويسلمني صحيفة صباحية كنت قد طلبتها منه وعدت الى مقعدي في السيارة أتصفحها وأفاجأ في الصفحات الاولى بطلب من أدعياء السلم أن يجعلوا من برلين مدينة حرة . عندها لم أكتم الحق أمرا اني ضحكت ورحت أسأل نفسي : أية حرية هذه التي أرادوها لبرلين ؟ أهي حرية من ذلك النوع الذي كموا فيه الافواه حتى لم يجرؤ أحد أن يعتز من الالمان بقوميته ؟ أم هي كتلك الحرية التي برهنوا عليها بمدافعهم يوم ١٧ حزيران من عام ١٩٥٣ يوم ثارت ثائرة العمال وقاموا بمظاهرة يطالبون فيها بتوحيد برلين مستنكرين نظام الحكم الذي يحكمون به ؟

وكأني بالمستعمر تعمى بصيرته عن الحق حتى لا يرى الا ما تصور له أطماعه . وكم تمنيت لو أستطيع أن أجد من يهمس في آذان من يطالبون بحرية برلين ليقول لهم : سلوا أهل برلين المحتلة عن رأيهم بكم وبسياستكم قبل أن تطالبوا بحريتها ، وسلوا عن عواطفهم نحوكم ورضاهم عن نظام حكمكم . ومن لي بأن يقول لهم : ان كنتم تعتقدون أن في تقسيم برلين خاصة وألمانيا عامة ما جعل من هذا الشعب أقساما وشيعا فانتم المخطئون .

والحق أقول : اني ما وجدت شعبا توحدت أهدافه كهذا الشعب في كل قسم من أقسام ألمانيا الثلاثة . ولم أكن لاستغرب هذا الشعور المشترك فقد ألفته في أمتي ووحدة أهدافها ، وانما كنت أستغرب كيف يعمد الدخلاء الى تقرير مصير غيرهم في عصر تفتحت فيه أعين الشعوب حتى التي تأخرت عن ركب الحضارة ، ولم تبق من أمة الا وآمنت اليوم أنها هي التي تقرر مصيرها وحدها دون سواها .



ان للكلمة روحها ..

بقلم : عدنان السبيعي

لو ان اللغة كانت قد وضعت من أجل التفاهم وحسب لكان بوسع البشر أن يتفاهموا بأية لغة ولا تعريب عليهم . ولو ان وظيفة اللغة قد اقتصرت على نقل الافكار وربط الناس بالناس لكانت أية لغة قمينة ان تقوم بديلا عن أية لغة أخرى في الوجود الانساني ، بيد أن الامر في اللغة يختلف عن مجرد التفاهم وتبادل الافكار .

ان اللغة كيان متعدد الجوانب والوظائف ، وهي ككل اداة معنوية يمتلكها الانسان تقوم بدور مزدوج دور الوسيلة والواسطة ودور الغاية والغرض .

اذا أخذت اللغة في شكلها البدائي الخام كانت مجموعة من الاشارات والرموز التي تستعمل من أجل التفاهم ، وعلى هذا التعريف ينطبق مدلول اللغة عند الاقوام البدائية والاطفال . ان طفلا اذ يكتب كلمة جديدة يكون قد امتلك مفتاحا جديدا لاقفال كثيرة أي امتلك اداة طيعة يستخدمها في ارواء حاجات عديدة له وكلما ألحفت . ان اللغة على هذا الصعيد الاولي لا تعدو ان تكون أداة ومجرد وسيلة . وبوسع الطفل أي طفل أن يكتسب أية اداة للتفاهم ويتعلم أية رموز لفظية أو حركية في التعبير .

والى جانب هذا الشكل البدائي للغةأشكالامتطورة ونامية ، أشكال تتهذب فيها اللغة وترقى فتصبح وسيلة من وسائل التفكير الذهني المجرد ثم ترقى وتنمو فتغدو جزءا من الانسان وبعضا من مقدساته والقيم السائدة الاثيرة لديه .

وحيثما نمت المعاني التي تكمن خلف الالفاظ ودقت وأرهفت وأنى سمت أغراض الانسان وارتقت مفهوماته ، نمت اللغة والالفاظ التي يستخدمها ورقت وصفت وغدت جزءا لا يتجزأ من معقولاته وأغراضه أي من نفسه (*)

لقد كان يسعنا ونحن أطفال أن نعبر بأية الفاظ ولم تكن نفوسنا لا قابلة ولا خيرة لها في أمرها ، ولا تهتز أي اهتزاز لهذا اللفظ وذاك ولكننا اليوم اذا كنا نجول في بلد غريب واثر فاصل طويل من الزمان ، زمان الغربة ، تشد هنا اللفظة وتأسرنا الكلمة ، أية كلمة عربية يتلفظ بها اثنان من العرب نسمعها في هذا البلد الاجنبي أو ذاك .

ان للكلمة روحها وهذه هي الحقيقة التي نرى ان نقف عندها بعض الحين ونلقي الاضواء على بعض جوانبها .

●

ان بين الالفاظ التي يستعملها الانسان والافكار التي تكمن وراءها نسبا وقرابة هما أوثق مما نظن ولا تكاد تتطور احدى المنظومتين الا وتتبعها الاخرى .. ان عالم اللغة كعالم الفكر ، وكلاهما كائن حي يلد وينمو ويزدهر ويتطور وقد يخبو ويموت ..

واللغة في تطورها الروحي تتبع خط تطور المعاني والافكار ، فتبدأ حسية أول الامر ثم تصبح ذهنية مجردة ثم ترقى الى عالم القيم والمثل .

١ – ففي المرحلة الاولى يقوم اللفظ في اللغة بوظيفة الدليل أي الخادم الذي يدل ويشير فهذا حجر وتلك طاولة .. الخ .. ولفظ الحجر لا يعدو أن يكون مجموعة من الاصوات التي تسجل في صور معينة هي الحروف أو المقاطع .

وهكذا يتولد اللفظ فيكون أشبه بالقالب الذي يصب فيه المعنى ، وطالما أن المعنى محدد بشيء من الاشياء ، فان اللفظ يظل راسغا في اغلال المادة والاغراض المشخصة .

٢ – وفي المرحلة الثانية ترقى وظيفةاللفظليصبح سيدا ، أي ندا للانسان لا مجرد دليل ، فلفظ كالفرح

(*) لقد جرت عادة الانسان أن يستعمل السيف اداة في الحرب ، ولكنه بعد ان يتقن صنع السيف يستخدمه اداة للزينة والفخار ، فيعلقه على جدار بيته ، ثم اذا مر الزمن ، انتقل السيف الى متحف القوم ليكون رمزا لامجاد الامة وجزءا من ماضيها الحي ، فهذا سيف ابن ابي طالب وذاك سيف صلاح الدين .. وقد لا يكون لكليهما تكوين مادي خاص ، ولكن روح الجماعةوذاكرتها هي التي تسبغ على قطعة الحديد الكيان والقيمة .

أو التابع الرياضي أو العلة ٠٠ لا يدل على كائن وانما على علاقة أو على شعور انساني بالعلاقة ، ان اللفظ هنا أكثر من قالب ، انه جزء من المحتوى الذي يتضمنه واذا انعدم اللفظ او تبدل ، ذهب أكثر محتواه أو تلاشى بالكلية ان وظيفة اللفظ ليست هنا الدلالة والاشارة فقط - كما كان الحال مع الحجر - وانما الوظيفة وظيفة بغير اللفظ ، (ان الشعور الداخلي يتولد في نفسي اذ أجد انسانا فرحا ينتقل من مكان لآخر بادي النشاط فياض الحركات طلق المحيا ومشرق الوجه ، هذا الشعور الكلي ذا العناصر الكثيرة والذي اعانيه لا يسعه ان يظل حبيسا في نفسي بل لا بد له ان يتثبت ، واللفظ هنا هو الاداة المجسدة أو الثابتة ، انني أجمع موكبا من العلاقات فاضمها الى بعضها واطلق عليها لفظا واحدا هو الفرح ، ولفظ الفرح جزء من الفرح نفسه بحيث لا تتم تجربة الفرح بصورتها الكاملة ولا تتبدى في صورة موضوعية مفهومة ان لم اجردها عن شعوري الخاص واجسدها في لفظ قائم مستقل عني يفهم كل الناس ، وأنا اذا لم اوفق للفظ المناسب وطلب مني ان أعبر عنه بالاشارات الحسية والحركات ، لكنت قمينا ان القى الصعوبات والمتاعب التي تفوق التصور وقد تستهلك ما كنت أحسه من رؤية تجربة الفرح نفسها (*) ثم قد لا أبلغ بعد ذلك ما كنت أود بلوغه ، فلا يدرك من يقف أمامي هل أنا أقصد الفرح كمصدر أو الفرح كاسم فاعل او كعنقة أو ٠٠ الخ ٠٠)

وهكذا فان اللفظ في المستوى الثاني من اللغة - أي مستوى المجردات والمعقولات - يؤلف كيانا يجسد المعاني بعد ان ينتزعها من النفس ويبرزها أمامنا وكأنها ذات وجود مستقل ، ان الالفاظ هنا هي حوامل المعاني ومقوماتها وهي (على حد تعبير الفيلسوف ارسطو : تنقل الاحاسيس من القوة الى الفعل) ٠ ويقينا لو ان اللفظ قد تلاشى او ضاع او اضطرب لضاع معه محتواه واضطربت روحته ٠

٣ - وفي المرحلة الثالثة ترقى وظيفة اللفظ أكثر فأكثر فتتناول احدى القيم انها انفعال وفعل تجاوز الانسان وتجاوز محيطه ، وفي ارتياده المجهول ٠

●

والذي يهمنا من كل ما سبق ان نوضح ارتباط الانسان بكل مرحلة من مراحل التطور الروحي للغة ٠

ففي المرحلة الاولى تتضاءل دائرة الذات وتتسع دائرة الموضوع ، ان الشيء هنا هو الذي يتحكم وهو الذي يكاد يخلق اللفظ ويقومه ، وكثيرا ما يكون صوت الشيء أو صياحه عاملا من عوامل تكوين لفظه (*) أو اسمه ٠

وفي المرحلة الثانية تتسع دائرة الذات وتضيق دائرة الموضوع او اذا صح التعبير يغدو الموضوع ذاتيا أي ذهنيا خالصا ، فأين يقع التابع الرياضي وأين نجد العلة ليس في العالم شيء محدد اسمه تابع رياضي ولا يوجد فيه شيء اسمه العلة وكل ما هنالك وجود علاقة أو جملة علاقات انشأتها الذات الانسانية أثر عمليات معقدة من التحليل والتركيب والتعميم والاصطلاح ٠

وهكذا ترتقي اللغة في هذه المرحلة وترهف كي تحقق أغراض الذهن الدقيقة بحيث يعد ارتقاء اللغة في الامة وغناها في عصر من العصور مقياسا موضوعيا صحيحا لارتقاء الذهن فيها ونمو الفكر العلمي لها في ذلك العصر ٠ ان اللغة هنا خزانة الفكر وهي مستودع التجارب العلمية للامة وفيها تكدس محصولات الذهن ونتائج جهوده في ميادين التحليل والتركيب والتنقيب ٠ وفي المرحلة الثالثة تنطلق الذات لتغمر الموضوع وتطويه ٠

ان العدالة والانسانية والمحبة ليست مجرد كلمات

(*) عندما تشعر في حياتك اليومية ان أملا قد خبا في نفسك وانه لن يتاح له التحقق بعد الآن ، تعبر عن وضعك النفسي هذا بكلمة بسيطة فتقول اني « يائس » من كذا ٠٠ ولكن انظر الى الفارق الكبير بين كلمة (يائس) تقولها فلا تكلفك الا جهدا ضئيلا يتم في جزء من الثانية ، وبين ما جرى لاحد العلماء : حاول أحدهم أن يعلم معنى اليأس وبطريق المحسوسات لاطفال صغار من الصم البكم ، فكلفه الامر بضعة شهور ، زرع الاطفال قطعة من الارض بحب الفاصوليا وظل يعنى بالزروع فظهر الفرح الذي بدأ يقوى كلما نمت النباتات ثم بخروج الزهرات وانعقادها ثمرات ، وظل الاطفال يفرحون ويسرون وينتظرون اكتمال الثمرات ، وفي ذات ليلة اوعز المعلم الى رجل ان يدوس بقدميه تلك الزروع في غياب الاطفال ، وان يجعلها يبابا حطيمة ، ولما وجد الاطفال ذلك وحل بهم الالم الشديد ، أظهر المربي أسفه وكتب على اللوح أمام الاطفال كلمة « يأس **Desespoir** مبينا لهم بطريق الحركات اليدوية والتعبيرات الوجهية ان اليأس هو هذا الالم الذي أخذ يحز في نفوسهم جميعا من جراء ضياع الثمار المنتظرة ، ونحن بدورنا ما ندري هل فهم الاطفال حقيقة معنى اليأس ؟! ٠ انظر ص ١٥٤ من كتاب الموجز في علم النفس للكاتب صاحب المقال ٠

(*) وهكذا يسمى صوت الحصان بالصهيل وكلمة صهيل شبيهة بالصوت ذاته ، وقل مثل ذلك عن النقيق والعواء والهدير والانفجار ٠

وانما هي قيم ، قيم ذات اشعاع وبوسع الكلمة من هذا النوع ان تخلق في النـاس مفعولا يفوق الاشعاع أعني الاشعاع الذي ينجم عن تفتيت الذرة كما يتخطى القوى التي تنطلق منها • ان أشد ما تصنعه القوى المنطلقة في العالم المادي هي ان تدمر أو تبيد انسانا او مجموعة من البشر ، ولكن وحي الكلام اذا بلغ منتهاه واستوفى أغراضه كان الموت ادنى رغبة تخامر الانسان ، وأبسط حقيقة يمتلىء بها وجدانه ليحقق من تجربة العدم ما يراه أسمى وأقوم للوجود (*)

وهكذا تقوم اللغة في هذه المرحلة الروحية بدورها في التعبير عن تجارب التجاوز الروحي المطلق والحيـاة فيه •

ان اللغة هنا خزانة الحكمة وهي مستودع الفلسفة فلسفة الامة وأخلاقها وهي اداة التقدم والنمولحضارتها• ان مخطوطات كل أمة وكتبها ومؤلفاتها تتضمن ثروتها الحقيقية وكامل معقوليتها ونظرتها الى الحياة والقيم • وكلما عبر حكم او فيلسوف عما يراه ويعتقد به ، فانه يصب في وعاء أمته ويبث في روعها ما كان يمكن ان يتبدد او يندثر لو لم يثبته بالمفاهيم ويقيده بالالفاظوالكلمات•

ان الفكرة الحكيمة المبدعة ، قد تخامر اولا رأس صاحبها ، ولكنها منذ ان تترجم الى اللغة وتنتقل الى دنيا الالفاظ ، فانها تسلك سبيلها الى الخلود فتصبح ملكا للامة تفخر بها ، وتغدو من ثم هبة تقدم الى الانسانية والتاريخ •

●

نخلص مما سبق الى ان اللغة في الامة خزانة ، وان لهذه الخزانة أبوابا ثلاثة تصاعديـة يقفل أولهـا وهو أدناها على رموز الاشياء واسمائها •

وتقع خلف ثانيها معاني الذهن ومفهومات العلم ومجرداته •

وتتجمع خلف الثالث والاسمى معاني القيم ومعالم الحضـارة •

ومن العبث ان تفتش عن روح الامة واصالتها فيما تحتويه الفاظها من أسماء الاشياء ورموزها اللهم الا ان تكون باحثا في المدنية لا في الثقافة • أما اذا نظرت في مفهومات العلم والعقل للامة فانك تواجه ذكاءها وقدرتها على فهم العالم المادي وتصريف محتوياته • وأما اذا كان هدفك ان تدرك المستوى الروحي لامة من الامم فلتفتش في الالفاظ الدالة على القيم والمكرسة من أجل الانسان والتسامي بالوجود •

●

وحين تكونت أمة العرب في الماضي تكونها النهائي، وانتقلت بالاسلام من دورها القبلي الى دورها كدولة ذات نظام ومجتمع عضوي منسق ، كان عليها منذالبداية ان تترجم وتعرب أقبلت على الترجمة بشجاعـة نادرة وتحمست للتعريب حماسة منقطعة النظير •

وكان اقبال العرب على تعريب المفهومات العقلية ومعاني القيم سابقا على تعريب الاشياء والمقتنيات(*) وهم لم يعربوا كل ما بدا لهم والقت الظروف أمام أعينهم ، فهم لم يبالوا باساطير اليونان وخرافات الهنـود التي اصطدمت مع أبسط معقولاتهم ولـم يترجموا الى لغتهم قصص الآلهة وانصافها ولا غرامها او افراحها وأحزانها، بل كانت مفهوماتهم الخاصة وقيمهم المميزة الفيصل في اختيار ما يترجم وما يعرب •

●

واليوم يسعى العرب لاعادة مجدهم وبناء حضارتهم من جديد فيتلمسون طريقهم الى ذلك بالعلم ، العلم الذي انقطعت حركاته ومبدعاتـه عنهم في غفلتهم زمانا غـير يسير • ان العرب ولا ريب يحتاجون الآن الى التعريب سنوات طوالا ، ينقلون فيهـا الى العرب أمهات الكتب ومصادر العلم ومصطلحاتـه ومفهوماته وستظل الحاجة الى التعريب قائمة الى ان تتمثل الاجيال العربية كل ما يعرب ومن ثم تلحق ركب الحضارة وتنطلق مبدعة في تفكيرها مجددة في اصالتها وذاتيتها •

وبرامج التعريب لا بد ان تختلف من قطر عربي الى آخر وذلك تبعا لدرجة التطور العلمي والقومي من جهة وتقدم وسائل البحث باللغة العربية من جهة ثانية• فبينما نجد المجتمع العربي في الاقليم السوري قد عرب منذ ثلاثين عاما او اكثر الشيء الكثير فيما يتعلق بالطب والعلوم الرياضية وعلوم المادة ، ونجده يحتاج الى تعريب المصادر الاساسية في العلم وتركيز بعض المصطلحات في مجال العلم والفلسفة نرى في مجتمع الاقليم الجنوبي اتجاها صادقـا نحو تعريب الطب في الجامعـة وتعريب

(*) يحدثنا التاريخ العربي ان الواحد من الذين دخلوا في الاسلام كان يأكل التمر فيسمع داعي الجهاد فينصت قليلا ثم يقوم وهو يقول بخ بخ أهـذه تحـول بيني وبين لقاء الله ، ويلقي بالتمرات الى الارض وينطلق الى الموت فيموت في لحظات وهو باسـم مشرق الوجـه والنفس •

(*) لم تترجم الى العربية كلماتاللوزينجوالفالوذج الا في العصر العباسي ، وبعد ان مالت شـمس العروبة الى شيء من الغروب •

الهندسة وبعض العلوم التي لم تعرب بعد ، ونجد في المجتمع العربي بتونس حاجة قوية الى تعريب العلم وتعريب الحياة والدولة نفسها • وفي الجزائر حيث حاول الاستعمار ان يفرنج كل شيء من كلام الناس يحتاج العرب بعد طرد المستعمر الى تعريب لغة العلم وكثير من التعبيرات السائدة في الحياة والى اعادة النظر في تكوين الفاظ الحياة نفسها ومفاهيم الدولة • ولا شك ان احتفاظ اخواننا الجزائريين بالقيم العربية في نفوسهم هو الذي حال دون انصهار الجزائر في الدولة البغي • لقد فرنج الفرنسيون كل شيء في الجزائر الا قلوب الجزائريين وايمانهم بالمثل الاسلامية العربية ، ولذا فانك تجد الجزائري يتكلم الفرنسية بلسانه ويشتم الفرنسيين بلغتهم ويتمرن على العربية بلسان فرنسي وألفاظ فرنسية • ان نظرية الابواب الثلاثة لمراحل التطور اللغوي (التي اتينا عليها آنفا) تصدق هنا أيما صدق وتبرز في صور واضحة جلية •

اننا نرى ان تسير حركة التعريب بتنظيم منطقي وتركيز معقول تحفظ فيهما الذات العربية حيث يهيمن الاعلى على الادنى ويكون للقيم العربية مقامها في الاوج ليكون للعرب استمرارهم وللرسالة دوامها واتصالها • وحيث لا تصرفنا تسمية الاشياء عن صياغة المفاهيم ولا تصرفنا هذه وتلك عن القيم العربية الاصيلة ، واذا كنا نؤمن حقا بثقافة عربية متميزة ، فان من الواجب ان تضمن ركائز هذه الثقافة الى قيمها وتحفظ مقوماتها ومعالمها • ان التضحية بلفظ بل بألف لفظ ايسر من التضحية بقيمة واحدة ، لان اللفظ يمكن ان يتجدد ويتبدل ولكن القيمة اذا افتقدت لعل الامة كلها تكون في خطر ، خطر التحلل من الذات وهي لعمري مصيبة المصائب •

– للبحث تتمة –

عدنان السبيعي

نشيد العودة (١)

بقلم : محمد عبد المنعم خفاجي

احتفى الادباء والشعراء والنقاد ، بديوان الغرباء ، لشاعر فلسطين القومي ، الاستاذ هارون هاشم رشيد ، صاحب هذه الانغام العذبة · والموسيقى المؤثرة ، والصور والالوان الرائعة البديعة ، التي اشتملت عليها قصائده ·

وشاعرنا عربي ، تتدفع دماء العروبة في قلبه ونفسه ، ويزخر شعره بنداء القوة والحياة والحرية والمجد ، وقد هزته نكبة «فلسطين» الشهيدة هزا عميقا ، ظهر أثره وصداه في شعره وقصائده ، هذه القصائد الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، بما تشتمل عليه من خصائص ومميزات ، ومن بلاغة وطبع وجمال فني خالص ، ومن عواطف مشبوبة ، وخيال رفيع ، وذوق سليم ، وشاعرية موهوبة ، وصور وأساليب هي في جملتها تمثل فصاحة الاسلوب العربي وعذوبته ، وتنطق عن خصب في عقل الشاعر وشعوره ، وعن دقة ادراك لروح القصيدة وعناصرها ، وعن وطنية متدفقة تنطوي عليها جوانح الشاعر · وايمان بقضية بلاده « فلسطين » المعذبة ، التي تحالف عليها جنود الاستعمار والصهيونية والسياسة الدولية الغاشمة ، وشرد أهلها في كل مكان ، وصارت هذه الخيام المنصوبة للاجئين المنهوكين من أبنائها ، تمثل أفظع صور الوحشية لانسانية الغرب في القرن العشرين ، ومدى احترام الديمقراطيات لحقوق الانسان ، وللمواثيق الدولية ·

والشاعر يصور في الديوان هذه النكبة ، بكل ما أحاط بها من فظائع وجرائم وآثار ، ويقص علينا قصة اللاجئين في خيامهم ، والمشردين النازحين المغتربين عن وطنهم في كل مكان ، والبؤس والحرمان والتشريد والعذاب الذي أصاب اللاجئين ، وهو مع ذلك مؤمن بوطنه وشعبه ، مؤمن بقضية بلاده ، وبحقها في الحياة والبعث من جديد ، وفي الكرامة والحياة الانسانية ، وفي أن يعود اللاجئون الى ديارهم وأموالهم وزروعهم وثمارهم ، وفي أن تعود فلسطين كما كانت حرة عربية عزيزة ·· كل ذلك في ثقة وأمل وتفاؤل كبير بالمستقبل ·

ولا تكاد تجد شاعرا آخر له هذه الصور عن اللاجئين وحياتهم وخيامهم وشقائهم وعذابهم الذي يعيشون فيه · ولم يظهر لشاعر فلسطيني ديوان من الشعر ، بعد النكبة ، سوى ديوان « وحدي مع الايام » لفدوى طوقان الشاعرة الفلسطينية المجيدة ، وان اختلفت نغمات الشعر عند شاعرنا وعند « فدوى » ، فنجد ظلال الحزن واليأس أغلب على الشاعرة ، ونجد ظلال التفاؤل والامل والايمان بالمستقبل أغلب على الشاعرة ·· ونجد نكبة فلسطين وحياة اللاجئين أكثر وضوحا في شعر الشاعر وقصيده ·

وسيمضي الزمن ، والفلسطينيون مشتتون في الارض ، ولكن سيجمعهم على الوحدة ، والتصميم على العودة ، والعزم على الكفاح من أجل البعث ، شيئان : أولهما : روح العروبة الثائرة المنطلقة ، المعتزة بمجدها التليد ، وبطولتها المأثورة ، ورغبتها في الكفاح من أجل الحرية للوطن العزيز ، وثانيهما : شعر هارون هاشم رشيد بما اشتمل عليه من الحان وأناشيد ودعوة قوية الى استعادة فلسطين وتحريرها وانقاذها من النير الصهيوني الغاشم المستبد ·· نعم ، سيمضي الزمن ، ويتجمع الفلسطينيون في كل مكان · لطرد الغاصب وتحرير بلادهم المستعبدة ·

ويمثل ذلك كله قصيدة الشاعر التي جعل عنوانها « أخي » ، وأهداها الى أخيه الفلسطيني أينما حل ، وفيها يقول في روعة وجمال وبلاغة :

أخي : أينما سرت في أي قطر
ستمضي وراك أبيات شعري
بعصف ، واعصار نار وجمر
وتهدى اليك عصارة فكري
تقول فلسطين لا تنسها
فمن نبتها أنت من غرسها
ومن عزها أنت ، من بؤسها
ومن مجدها أنت ، من قدسها
تذكر أخي كل شبر هنا
اذا ما انطلقت تجوس الدنيا

---

(١) من كتاب تحت الطبع

فلا تنس أن تذكر الموطنا
وتسعى اليه غدا مؤمنا
سنمشي الى الارض ، نحمي حماها
ونمضي أعزاء نروي ثراها
سنحيا فداها ، ونقضي فداها
ولا ، لن نريد بديلا سواها
أخي : أينما سرت شعري يسير
ويدفق احساسه والشعور
لقانا غدا يوم يدعو النفير
أخي : وهناك ، هناك ، المصير

وكذلك قصيدته « نشيد فلسطين » ، وهي نغمة ألم ، وأمل في بناء فلسطين العربية من جديد ٠

ان هذه الانغام الحلوة لا يمل أحد ترديدها ، ولا يسأم انسان من الغناء بها ، وهي قطعة حية من نفس كل فلسطيني حر أبي ، يهزه الحنين الى أرض الوطن ، وتخنقه العبرات للحاضر المؤلم الذي يعيش فيه أبناء وطنه ، ويلوذ بالصبر والامل والتفاؤل بمستقبل بلاده ، وبالبعث الجديد في الارض المقدسة ٠

والشعر الفلسطيني المعاصر يمثله شاعرنا هارون هاشم رشيد ، وفدوى طوقان ، والمرحوم ابراهيم طوقان ، وطائفة من شعراء الشباب هزت أحداث فلسطين ومصيرها مشاعرهم ونفسهم هزا عنيفا ، فنطقوا بالشعر يترجمون صور الحاضر ، وأحداث الحياة ، والكفاح من أجل الوطن ٠٠ ولم نجد ديوانا لفلسطيني ، يكاد يكون وقفا على الشعر الوطني والقومي ، وعلى تصوير النكبة التي نكبت بها الارض المقدسة الطاهرة ، قبل هذا الديوان ، الذي فرحنا بظهوره فرحا بالغا ، واستقبلنا مشرقه استقبالا كريما ٠

تتعدد دواوين الشعر المعاصر ، وقد يغني بعضها عن البعض ، ولكنا لا نجد ديوانا قديما أو حديثا أو معاصرا يغني عن هذا الديوان ، الذي هو بحق ديوان فلسطين ، ونشيد البعث والحرية واليقظة والعودة ، وهتاف المجد للفلسطينيين المشردين المغتربين عن بلادهم العزيزة ٠

والدارس للديوان لا بد أن يدرس أولا قصيدته الرائعة المؤثرة العذبة الحزينة : « قصة (١) » ، التي التي نظمها عام ١٩٥٠ ، وذكر فيها قصته في الحياة ، بل قصة أسرته التي ماتت شهيدة على يد الاستعمار في فلسطين ، وتقع أحداث هذه القصة قبل تاريخ نظمها بعشرين عاما ، أي ١٩٣٠ :

قصة قد حدثت بالامس من عشرين عام
حدثت في عهد الاستعمار ، في عهد الظلام
حدثت في قريتي الخضراء في رأض السلام
كلما أذكرتها اهتزت من الرعب العظام

وفيها يذكر الشاعر القصة بملامحها وظلالها وحواشيها ووقتها ومكانها ، يذكرها في أسى ولوعة وحزن عميق ، ففي مساء يوم من أيام الربيع ، بات الطفل الشاعر ، وباتت أمه في قلق عجيب ، وكانت الام تنتظر أحداثا جساما ، ويقص الشاعر علينا : كيف بات ؟ وماذا أكل ؟ فيقول في واقعية عجيبة :

فتكومت الى بعض حصير أتململ
والدجى يمعن في السير حثيثا يتغلغل
وأتت أمي بخبز وقليل من « مخلل »
وأكلنا بعض شيء ، ليت شعري ، ليس يؤكل

ثم يصف الفزع الذي استولى على المنزل في ذلك الليل القاتم ، وكيف حاصرت جنود الاستعمار هذا المنزل مع الفجر ، ثم دعا العمدة أم الشاعر ، أم محمود ، يسألها عن زوجها ، الذي أقلق الاستعمار ، وسبب له متاعب جمة في فلسطين ، فنفت علمها بمكانه ، ففاجأها جندي من جنود الاستعمار الانجليزي بالرصاص ، فاذا هي تهوي الى الارض شهيدة من شهداء الحرية في الارض المقدسة ، ويتابع الشاعر القصة ، فيقول :

ومشى الجند ، مشوا من فوق أمي
وأنا أصرخ من رعب ، ومن بؤس ملم
وتكاد الخيل أن تدفن فوق الدرب جسمي
غير أن العمدة المسكين يحميني ويهتز ليتمي

ولم يكتف الاستعمار بما صنع ، بهذه الجريمة الوحشية ، بل أحرق القرية كلها ٠ ويسأل الطفل الشاعر عمه العمدة في لهفة وأسى ، قائلا :

عم ياعمدة : ماذا كان — عمي — ذنبنا ؟
ولماذا قرروا أن يحرقوا أبياتنا ؟
أترى تعرف يا عم ، أتدري ، جرمنا ؟
أم ترى تجهل ما بيته الظلم لنا ؟

وخرج الناس من قريتهم العزيزة ، يشهدون حطامها ، ويشاهد الطفل منزله ، والنار تلتهم كل شيء فيها وفيه ٠ فكان لذلك أثره النفسي العميق في الشاعر ، مما يصوره في أبياته المؤثرة ٠

من هنا قد بدأت مأساة عمري
بدأت قصة آلامي وأحقادي وثأري
من هنا قد شبت النار في أعماق صدري
وتعلمت لماذا حفر الجلاد قبري ؟

---

(١) ص ٥٠ — من الديوان ٠

ثم يصف الشاعر جهاد أبيه الشهيد في سبيل حرية بلاده ، ويصف العداوة التي شبت في صدره للانجليز وجنودهم ٠ ويردد لحن عجيب مؤثر :

لن ينام الثأر في صدري ، وان طال مداه
لا ٠٠ ولن يهدأ في روحي وفي قلبي لظاه
صوت أمي لم يزل في مسمع الدنيا صداه
وأبي ما زال في سمعي ، وفي روحي نداه :
أن تقدم ثابت الخطو الى الحق ، تقدم
وتقحم حالك الاهوال للثأر ، تقحم

والقصيدة في جملتها جديدة التصوير ، قوية التأثير ، عذبة التعبير ٠٠ وهي وحدها شاهد حق على هذه الشاعرية الموهوبة العالية ، التي تستمد من السماء الهامها ٠ ومن الحرية أناشيدها وأنغامها ، ومن آلام الحاضر ومحنة الحياة فيه فلسفة التفاؤل والامل والايمان بيوم البعث ، الذي لا بد أن تشهده أرض فلسطين الطاهرة عما قريب ٠

والشاعر يكثر من الحديث عن يافا ، مما نجده في قصيدته « مع الغرباء » ، وفي قصيدته « هناك بلادي »، وفي قصيدته « يا بلادي » ، وفي قصيدته « أخي » ، و « المولد النبوي » ٠٠

وقد تكون « يافا » هي موطنه الحبيب الاثير لديه ، بعد أن أحرقت قريته الصغيرة بيد الاستعمار الانجليزي وجنوده في فلسطين عام ١٩٣٠ ، وربما كانت هذه القرية قريبة من يافا ، وقد تكون بعيدة ٠٠ وربما كان حب الشاعر ليافا لانه قضى فيها مرحلة تعليمه ، أو لان له أقارب عاش معهم فيها حينا من الزمان ٠

وفي مطلع الديوان نجد قصيدة « مع الغرباء » المؤثرة ، ذات اللحن الحزين المتدفق العذب ، الذي لا يمل سماعه وترداده ٠٠ وهي عبرات منظومة في حديث بين ليلى الفتاة اللاجئة في معسكر البريج بقطاع غزة ووالدها الهرم الشيخ :

أتت ليلى لوالدها
وفي أحداقها ألم
وفي أحشائها نار
من الاشواق تضطرم
وقد غامت بعينيها
طيوف هزها السقم
وقد نام البريج أسى
فلا صوت ولا نغم

وهكذا يصف الشاعر ليلى الفتاة ، ثم ينتقل الى وصف والدها الهرم ، ثم يدور الحديث بين ليلى ووالدها، وعلى أي شيء يدور الحديث ؟ انه ليس هناك أعز من فلسطين وطن الشاعر ، فلسطين التي غزاها جماعة من السفاحين واللصوص يؤيدهم الاستعمار بكل قوته وماديته ، فلسطين التي طرد سكانها ٠ وشرد أهلوها ، وصارت الاندلس الجديدة ، وصار مصرعها تاريخا لاعظم نكبة أصيب بها الشرق العربي في القرن العشرين ، بيد الاستعمار والمستعمرين ٠٠ وبماذا تتحدث ليلى الى والدها ؟ انها تتحدث أولا عن غربتها ، وغربة أهليها ومواطنيها ، وعن الشقاء والبؤس والحرمان والفقر الذي يعيش فيه اللاجئون ، ثم تتحدث بعد ذلك عن وطنها الحبيب المجيد وذكرياته فيه :

لماذا نحن يا أبتي
لماذا نحن أغراب ؟
أليس لنا بهذا الكو
ن أصحاب وأحباب ؟
يمر العام اثر العا
م يا أبتي بلا جدوى
فلا أمل ، ولا بشرى
ولا نجوى ، ولا سلوى
سوى الآلام والشجن
سوى الاحزان والمحن
سوى صوت من الاقدا
ر يهتف دائما : وطني
لماذا نحن لا نز
رع أحمرارا بأيدينا ؟
ونأكل خير موطننا
ونعطيه ، ويعطينا ؟
لماذا نحن في الخيـ
مة ،في الحر،وفي البرد ؟
ألا نرجع للبيت
وللحقل ، وللمجد ؟

ثم يقص الشاعر قصة ليلى مع والدها ، حين سألته عن أمها « التي ذهبت ولم ترجع » ، وعن أخيها « أحمد » الذي مات واستشهد ، وعن صاحبتها سلوى اللاجئة التي استحالت الى عيون فيضها ألم ، وجسم كله سقم ، وعن مدينتها المحبوبة « يافا » وغرفتها في منزل أبيها في المدينة ، وكيف لاذ والدها بالصمت ، ثم استحال الى قوة من الايمان بالمستقبل ، وهو يقول :

فيصرخ سوف نرجعه
سنرجع ذلك الوطنا

ويصمم على ما يقول في تفاؤل وثقة :

فصبرا يا ابنتي صبرا
غداة غد ، لنا النصر

وهكذا نجد ظلالا من الواقعية العجيبة ، والصور العذبة المطبوعة ، والخيال المجنح بألوان زاهية من اشراق العاطفة وثورتها واحتدامها ، مع البساطة والرقة، والحنان في الاسلوب والالفاظ ، والقوة في الرنين والنغم والموسيقى ، ومع البلاغة والتأثير ·

والشاعر في القصيدة الثانية « أين المفر » يصف حياة اللاجئين في الشتاء وصفا مؤثرا حزينا باكيا ، ويتساءل في ألم عميق عن صانعي هذه النكبة ومرتكبي تلك الجريمة الانسانية ، التي لا مثيل لشدتها ، فيقول:

ليت شعري : أين الذين رموهم
في جحيم من العذاب وفروا ؟

ثم يتحدث عن يقظة الشعوب في عصر الحرية :

الشعوب استفاقت اليوم يهدي
خطوها للعلى وللحق ثأر

ويطالب بانقاذ البقية الباقية من اللاجئين :

أنقذوا ، أنقذوا ، البقية منا
فهنا الموت جاثم مستقر

والقصيدة الثالثة « سأزرع أحلاميه » يدعو فيها الشاعر رفاقه واخوانه من أهله ومواطنيه الى الكفاح والعمل · من أجل اعادة فلسطين العربية حرة عربية كما كانت ، ويعبر فيها الشاعرعن ايمانه وثقته بالمستقبل، وبثمرة الكفاح من أجل وطنه الشهيد ·

والقصيدة « مهاجرون » يتحدث فيها عن هؤلاء المهاجرين اللاجئين ، ومحنتهم في حياتهم ، وخيامهم وقد ضاقت بمن فيها الخيام · ثم يختمها بثقته في مستقبل شعبه الحبيب :

بشرى : فلسطين الحبيبة يوم ينتفض الحطام
سنثيرها شعواء تلتهم اليهود وما أقاموا

وقصيدة الشاعر « أحزان لاجئة » يتحدث فيها عن الآلام النفسية للاجئة حزينة ، وكيف ضاقت ذرعا بهؤلاء الذين يحلو لهم أن يغرروا بالاعراض الطاهرة ، وكيف أعطت هؤلاء دروسا لا تنسى أبدا ، ويقص ايمانها بوطنها ، وأنه غدا لا بد أن يعود ، يعود اليها ·

وفي قصيدته : « هناك بلادي » يذكر ذكرياته في وطنه ، والمدن الفلسطينية الجميلة ، التي اغتصبها اليهود من أيدي سكانها · ويذكر القرى الفلسطينية التي تلوح من خلف الحدود :

وخلف الحدود تلوح قرانا
تكاد على بعدها أن ترانا
تكاد تشق الينا الزمانا
فما عرفت للمعالي سوانا

ويؤلمه الحاضر المرير تحت الخيام الممزقة فيثور صارخا :

ويرحل عام ، ويشرف عام
ونحن كما نحن خلف الخيام
نقاسي صنوف الاذى والسقام
ونمشي مع البؤس أنى أقام

ولكن الشاعر لا يفقد في المحنة أمله ، فيقول :

بلادي وان آلمتنا الجراح
وان فرقتنا سياط الرياح
فنحن على العهد عهد الكفاح
سنبقى الى أن يطل الصباح

وفي قصيدة الشاعر « على صخرة الانتظار » يقص قصة فلسطينية فقدت زوجها في ميدان الشرف ، ولا تمل أن تخرج كل يوم الى صخرة كبيرة بجوار أحد معسكرات اللاجئين ، تناجيها وتناجي زوجها الذي كر وضاع خلف الغبار ·

وقصيدته « النسر الجريح » من أجمل صور الشعر في ديوان الشاعر ، وهي حافلة بصور رمزية بديعة ، والشاعر يدعو فيها وطنه الى أن ينهض من جديد ، وألا يستسلم للاحداث ، ويدعو الشباب الفلسطيني الى محاربة اليأس والقنوط ، ويدعو النسر الجريح الى أن يطير من جديد محوما في السماء :

أليس من العار موت النسور
على الارض لا في عنان السما ؟
تحامل ، وغلغل ، وراء الخطوب
وأطلق جناحيك ، أطلقهما

وقصيدته « موعد للثأر » ألقيت في وضع الحجر الاساسي لمستشفى الرحمة بمدينة خان يونس عام ١٩٥١ ، وفيها يشكر الشاعر مصر صاحبة اليد البيضاء على فلسطين وأبنائها اللاجئين ، ويستنهض همة شعبه للكفاح والجهاد من أجل فلسطين العربية ، ويختمها بقوله :

سوف نأتيها وان طال المدى
بجنود النصر تحت العلم
فاعملي يا أمتي صابرة
ولغير السيف لا تحتكمي

وفي قصيدته « العيد يوم الثأر » يصف قدوم العيد على وطنه المتكوب ، على الخيام الحزينة ، وسكانها المشردين ، ويهتف في آخرها صارخا :

وطني ، وبي شوق اليك يهزني
وطني وعيد أنت يوم تعود
لا بد أن نلقاك ياوطن العلا
وعلى رباك عدالة وسعود

ويخاطب الشاعر اخوانه اللاجئين ، الذين يطالعون العيد في حسرة ولوعة ، في قصيدته « عيد الفطر » ،

ويصف فيها قدوم العيد على الخيام الكئيبة ، ويسأل العيد في حزن عميق : هل للاجىء المحروم عيد ؟ وهل للهائمين الاحرار المشردين فطر ؟ .

ويقص الشاعر قصة « معلمة لاجئة » في قصيدة له بهذا العنوان ، وقصة صداها الذي سكت ، ووجهها الذي غاب الى الابد ، بعد كفاح طويل من أجل الثقافة والحرية وأبناء فلسطين المعذبة .

ويهدي الشاعر قصيدته « جنبا الى جنب » الى المثقفات من بنات الجيل ، وقد خاطب فيها ليلاه « أغرودة الامل الحبيب الارفع » ، يطالبها بالجهاد من أجل اخوتها الصغار اللاتي أوصاها بهن أبوها الشهيد . ويختمها بدعوة حارة الى القوة ، هاتفا :

ليلاي لا يجدي بهذا العصر صوت الادمع
والحق ، ان الحق لا يأتي بغير المدفع
فتحصني ما اسطعت بالامل الحبيب ، وأبدعي
فامضي ، نذوب مع الحياة على طريق المرجع
هيا اعملي يا منيتي جنبا الى جنب معي

وهكذا تتوالى قصائده : (لاجىء في العيد) التي تفيض حزنا وأملا ، و (كيف تعود ؟) وهي قصيدة بديعة رفيعة البلاغة ، ناجى فيها الربيع ، وسأله : هل يعود يطلع على ريف فلسطين الشهيدة ، وكيف يعود الربيع عليه ، وقد شتت أهلها في كل مكان ؟ ثم يمضي الشاعر فيها هاتفا في نغم جميل :

أنا ها هنا زفرة منهم
تكاد على صبرها تصرع
أنا ، والحنين ، وهذا الظلام
وهذا التحرق ، لا نهجع
متى يا ترى يرجع النازحون ؟
متى بهم تزهر الاربع ؟

والبيت الثاني من هذه الابيات ليس لجماله نهاية .. ثم هذه قصيدته (دموع ودماء) ، التي يخاطب ويناجي بها (نبي الاسلام) ، باكيا بلاده الممزقة المنهوبة . وقصيدته (يابلادي) التي يناجي الشاعر فيها بلاده ، ويقول فيها في جمال وحلاوة وبلاغة :

يوم تدعين ألف لبيك منا
سوف تمشي الخيام بالاوتاد

وقصيدته الرائعة (الاهداء) ، يهدي فيها أناشيده الجميلة الى اخوانه اللاجئين ، قائلا فيما يقول :

اليهم سأشدو بشعر الحياة
ومنهم بروحي سأستلهم
اليهم وان حطمتنا الخطوب
وأرهقنا الحادث المؤلم
اليهم سأشدو بشعر الحياة
سأشدو ، وأشدو ، وأستلهم

فيصحو على شعري السادرون
ويستيقظ النفر النوم

وقصيدته الجميلة (سنعود) وهي من أغاني العودة ، ومطلعها :

سنعود يا أختاه للوطن
رغم الشقاء وقسوة الزمن

ويقول في آخرها :

سنعود في ركب الحياة
ونعود أحرارا أباة

وهي شبيهة بترانيم الشابي ، وهنا نقف وقفة قصيرة عند قصيدته (الى النازحين) التي يقول الشاعر في مطلعها :

أخي في الكويت ، أخي في اليمن
أخي في الحجاز ، وليل المحن
أخي رغم ليل الاسى والدموع
وليل الشقاء ، وليل المحن
سألقاك يوما قوي الجناح
عزيزا ، هنا ، في رحاب الوطن

وتتوالى صورها ومشاهدها وظلالها وخيالاتها في جمال وعذوبة وبلاغة وموسيقى حلوة حزينة مؤثرة ، ويختمها بقوله :

أخي نفض اليأس عن عارضيك
ونفض غبار الاسى والوهن
وصبرا ، فلا بد للبائسين
بأن يثأروا رغم أنف الزمن
ولا بد أن يرجع اللاجئون
وأن يصعدوا فوق هام المحن

وهي نشيد رفيع ، ما أجمل صداه ، وأعذب موسيقاه ، وجدير بها أن تكون نشيدا لكل فلسطيني وفلسطينية .

ويسخر الشاعر في قصيدته (يا صاحبي) بخرافة « مجلس الامن » ، و « هيئة الامم المتحدة » ، وهو يردد :

سنحل نحن قضية
بليت على أخذ ورد
انا على وعد غدا
فلنستعد لخير وعد
فاذا تعبت أشد زنـ
ـدك ، أو تعبت تشد زندي
وأصون عهدك في دمي
يا صاحبي ، وتصون عهدي

ويحي الشاعر كفاح اخوانه من شباب مصر ، في القنال ، عام ١٩٥١ ، ويستثير عزيمة كل شاب في وادي النيل للكفاح من أجل حرية مصر والسودان والعرب في كل مكان : في قصيدته « أخي في القنال » ، وفي

قصيدته « كتائب التحرير » وفي قصيدته « نبع الخلود »، التي يناجي فيها النيل ، ويصف جهاد شبابه في القنال.

وفي قصيدة « زهرة لاجئة » يصف أثر النكبة في امرأة عربية فلسطينية ، ساقها الجوع الى الاوحال .. وأهداها الى الزهرة المعفرة ، التي اضطرتها أعاصير الخريف أن تترك الذرى ، لتموت بين الاوحال ، بعيدة عن الجبل .

ومن بديع قصائده (عائد من الميدان) ، التي يقول فيها :

ها أنا عدت وساقي بقيت
في فلسطين حديث الحقب
ويدي قد جاهدت صابرة
ثم طارت في سماء النوب
لم أشوه ، انما جملني
أنني عدت بأسمى الرتب
النياشين التي أحملها
ناطقات بالحديث العجب
العلا قد سرت في موكبها
فاذا الشعب جميع الموكب
يا أخي الجندي ، يا كل المنى
يا صديقي ، يابن أمي ، وأبي
انها مصر على الدنيا زهت
وسمت فوق جبين الكوكب

وكذلك قصيدة « ارادة الشعب » التي يتحدث الشاعر فيها عن ثورة جيش مصر ، وكيف كانت انتصارا لارادة شعب مصر في الحرية والحياة الكريمة ، ويختمها بقوله :

يا مصر يا أمل الشعوب جميعها
سيري ، فعين الله نحوك تنظر

ومن روائع شعر الديوان قصيدة (غرباء) التي يقول في آخرها :

غرباء غدا نعود الى الار
ض ، الى المجد ، أو نموت ونفنى

وهي نحو خمسة وعشرين بيتا ، وجميع أبياتها تبتدىء بكلمة (غرباء) ..

وكذلك قصيدة (قالت تسائلني) ولا تسأله حبيبته عن متعة أو حظ أو شيء مما يهم الناس ، وانما تسأل الشاعر : أنرجع للوطن ؟ أنعود الى أرض فلسطين المطهرة ؟ .. وكذلك قصيدة (اني مللت) التي تشوبها نزعات من الحيرة والشك والتساؤل والفلسفة الغامضة المبهمة ، مما هو أثر نفسي للنكبة وأحداثها ، وفي آخرها يقول الشاعر في حيرة عميقة :

اني مللت ، مللت قولي
دائما : لا ، لست أدري

وكذلك قصيدة (الى أين) ، و (يا بلادي) ، وحيفا ، و (أين منى) التي يقول في مطلعها في جمال وطبع وبلاغة وعذوبة :

أين منى القيثار والصهباء
والغناء الجميل ؟ أين الغناء ؟

ويستمر في هذا التساؤل الجميل ، الى أن يقول :

فجأة ، وانطوى البساط وجفت
خمرة الكأس ، واختفى الندماء
فاذا الموطن العزيز ذليل
واذا الاهل ، أهله ، غرباء

وهكذا نقرأ روائع الديوان : قصيدة بعد قصيدة ، وعبرة اثر أخرى ، وذكرى اثر ذكرى : (سنرجع مرة أخرى) ، (والمولد النبوي) ، و (سنذيقهم مر العذاب) .. الى آخر هذه القصائد الجميلة الممتعة .

والديوان نموذج عال من البلاغة للشعر ، وللمذهب الواقعي فيه ، وهو يفيض بأنغام من الشعر المهجري ، ومن موسيقى شعراء مدرسة أبولو ، وتختفى فيه كثيرا صور الكلاسيكية ببلاغتها القديمة .

ومن صور الخيال اللطيف في شعر الشاعر قوله :

منجل الذعر في رباها مغير
يحصد الزرع ، فالربى جرداء

وتشبيه الذعر بالمنجل الحاصد لطيف ، لان الذعر يحصد الامن والسلام والطمأنينة ، بل يحصد الارواح في كثير من الاحيان ، وقد سبق ابن المعتز فشبه الهلال بمنجل يحصد من زهر الدجى نرجسا .. ولما جعل الشاعر هنا الذعر منجلا مغيرا في ربى فلسطين ، جعله يحصد زرع الربى ، حتى لتبدو جرداء من كل شيء ، وهذا جميل وان كان الشطر الثاني ضعيفا بعض الشيء وغير مكمل للصورة اللطيفة التي أتى بها في الشطر الاول من البيت ، فمنجل الذعر يحصد الزرع ، ولكنه يحصد الارواح أيضا ، وحصد الارواح هنا أهم من حصد الزرع، وهذا المنجل لا يغير في الربى وحدها ، بل في الربى والبطاح كذلك ، وكان على الشاعر أن يقول : ان هذا المنجل يحصد الامن والنفوس والطمأنينة ، أو يحصد ثمر الحياة وزهورها ، أو ما شابه ذلك .. وكان عليه أيضا أن يقول : منجل الذعر في حماها ، لا في رباها ، وما أدق الشاعر لو قال :

منجل الذعر في فلسطين جان
يحصد الامن فالحياة شقاء

أو ما شابه ذلك .. ولكن الشاعر محمود على كل حال ، لطيف الصورة رغم هذا .

وبعد فان الشعر المعاصر ليهتز فرحا بظهور (ديوان مع الغرباء) ، الذي يسجل أروع الالهامات الشعرية ، ويجمع أعذب أناشيد الاباء والحرية . ويحتوي على صور أنيقة مطبوعة من البلاغة والجمال الفني الاخاذ .

الشعر الاندلسى

تمهيـد :

دخل العـرب الاندلس ، واستراحوا من الفتـح والجهـاد ، فرجعوا الى طبيعتهم المتـأصلة فيهم ، والى الملكة التي نشأوا عليها ، وورثوهـا في دمائهم ، وهي قرض الشعر ، وخاصة أن الشعر هو غذاؤهم الروحي ومتعتهم النفسـية ، ومرآة لحيـاة العربي الاجتماعيـة والعقلية والسياسية ، يتغنى به في حلهوترحاله ، ويصور فيه ما يجيش بخلده من حب وبغض ٠ ويرسم فيه ما يحيط به من جمال الطبيعة ، وما تلهمه به هذه الجنة الساحرة من روائع القصيد ٠

ولما أقام العربي في هـذه البيئة ، وعاش عيشة فراغ واستقرار ، ظهر الشعر العربي متشحا بمطارف الخيال البديع ، وخاصة لما رآه العربي من جمال طبيعة هذه البلاد ، وان كان يعيش بعقله وخياله في البادية ومرائيها ، فكانت معيشته تمثل حياتين : حياة الحضر التي يحياهـا ، وحيـاة الباديـة التي يتمثلها في خياله وأحلامه ، وكان شعره منبعثا من هذين الاثرين ، فظهر فيه جمال الفطرة وجزالة البداوة ، ونضارة الحضارة ، ورقة الخيال ، وكان في صور الطبيعة ما يلهم قريحته بأجل صور الوصف ، وأروع قصائد التصوير ، حيث رسموا في شعرهم كل شي وقـع عليـه نظرهم ، ومر بخاطرهم ٠

وقد كان الشعر أسبق أنواع الادب ظهورا في هذه البيئة الجميلة ، وذلك لان الشعر مظهر الثقافة العربية ، ولانه مرآة لحياة العربي العقلية والاجتماعية ، يشدو به حينما نزل ، وأيان ارتحل ، ولان ذلك جزء من كيان طبيعة العربي لا يمكنه الاستغناء عنه ، أو اطراح الشدو به ٠٠ على أن العرب حين امتزجوا بسـكان البـلاد ، واعتنق الاسلام كثير من سكان البلاد الاصليين ، وتعلموا العربية وآدابها وبلاغاتها ، نشأ جيل جديد من المولدين أخذ الشعر صناعة لا طبعـا ، ولكنـه أقبل على قرض الشعر اقبال العربي الاصيل لتعلق الطبع دائما بالشعر وحنين الخيال اليه ٠ ولقد ذاع الشعر بين جميع الطبقات، وأقبل الناس على نظمه ، سواء منهم الخلفاء والامراء والوزراء والفقهاء والحكماء والادباء والنساء ٠

مدى عناية الاندلسيين بالشعر :

١ ـ لم يكن للشعر في أوائل الفتح مجال ، لان العرب كانوا جد مشغولين بالجهـاد والغزو ، وتوطيد دعائم الامن وتنظيم الملك والدولة ، فلم يتح لهم ذلـك فراغا يهدأون فيه لنظم الشعر وقرضه ٠

٢ ـ ولما قام ملك بني أمية ، فتحالخلفاءصدورهم للشعراء والادبـاء في مجالس الادب والغناء ، وأفاضوا عليهم الاموال ، واتخذ الشعراء الشعر وسيلة للتقرب الى الحكام وكبار القوم ، بمدحهموالزلفىاليهم ، ووصف مجالسهم وقصورهم ومعالم الحضارة في بلادهم ، حتى كان الشعر وسيلة الى الثراء والجاه والنفوذ ٠ وظهر في عصر الامويين العديد من الشعراء ، من أمثال ابن هانىء الاندلسي ، وابن دراج القسطلي ، وأحمد بن شهيد ، وسواهم ٠ وكان تشجيع الملوك والامراء والوزراءللشعراء بالغا الغاية ، فلا عجب اذا ازدهر الشعر على أنواعه ، وأخذت حاشية الشعراء ترق ، واحساسهم الفنييرهف، وبلغ من زيادة مكانة الشـعر أن نظمه الملوك والامراء والوزراء ، فمن ذلك قول الداخل من أبيات بعث بها الى أخته بالشام :

قـدر البين بيننا فافترقنـا
وطوى البين عن جفوني غمضي
قـد قضى الله بالفـراق علينـا
فعسى باجتماعنا سـوف يقضي

٣ ـ وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والادب في الاندلس ، ظهر فيه كثـير من فحول الشـعراء ، كابن زيـدون ، وابن خفاجة وابن وهبون وابن عمار ، والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية ٠ وصار الشعر يجري على كل لسان ، حتى انه كان ـ كما يقول ابن حيان ـ باستطاعة الفلاح الذي يحرث الارض أن يرتجل الشعر في أي موضوع يعن له ، وأخذ ملوك دول

(١) من كتاب للمؤلف تحت الطبع ٠

الطوائف وأمراؤها ووزراؤها يحتفون بالشعراء ويتنافسون عليهم ، وعلى ضمهم الى بطانتهم ، فينظمون لهم المدائح ويسطرون ما يفعلون من مآثر ومحامد ، فلا بدع اذا كثر شعراء ذلك العصر وعظم شعر المدح · وجرى حتى على ألسنة الملوك والامراء والوزراء ، وكان المعتمد شاعرا مجيدا ، ينظم الشعر ويتذوقه وينقده ، ولم يكن يستوزر الا من كان أديبا أو شاعرا ·

٤ – وفي عهد المرابطين ظهر ابن قزمان ، واستحدث في الشعر فن الزجل ·· وظهر فيه وفي عهد الموحدين الكثير من الشعراء وفي مقدمتهم : ابن خاقان وابن سهل ، وسواهم ·

٥ – وقامت دولة بني الاحمر ، وهي من أصول عربية سليمة ، فشجعت الادباء والشعراء ، وعنيت بسماع صوت الشعر في كل مناسبة وكل حدث ، وفي كل انتصار لبني الاحمر على المسيحيين الاسبانيين ، وكثر الشعراء في عهدهم ، ومن أشهرهم لسان الدين بن الخطيب ·· ثم انتهى الحكم العربي في الاندلس عام ٨٩٧ هـ – ١٤٩٢ م ، فانتهت العربية وآدابها في هذه البلاد ، وان بقي تأثير الشعر الاندلسي في الشعر الاوربي في اسبانيا وفرنسا وجنوبي ايطاليا زمنا طويلا ، فالطابع الذي اتسم به الشعر الفرنجي من وصف مناظر الطبيعة ، وتصوير جمالها ، ومن الشعر الغنائي ، والمقطوعات الشعرية المقفاة التي تحاكي الشعر العربي في أفكاره وأخيلته ، لا يختلف عن طابع الشعر الاندلسي ، مما يشهد أن الاوربيين نهلوا من معين الشعر الاندلسي ، وكان الشعر الفرنسي يحاكي الشعر الاندلسي ، ويأخذ عنه صناعة الشعر والقوافي بل ان الملاحم القشتالية احتوت ألفاظا عربية مثل الدليل والقاضي والطلائع والغارة وسواها ، مما يشير الى أثر الادب الاندلسي والشعر الاندلسي في صميم هذه الملاحم ، ومعظم ما جاء به دانتي الشاعر الايطالي مأخوذ عن محيي الدين بن عربي ، سواء في الصور أم في الامثال والاصطلاحات والاساليب الفنية ، وقد اصطبغ الشعر الاسباني بصبغة أندلسية اعترف بها النقاد والباحثون ·

أسباب ازدهار الشعر في الاندلس :

١ – روح الشاعرية الموهوبة المتأصلة في نفس العربي أينما كان وحيثما ارتحل ·

٢ – تعدد البواعث التي كانت تلهم الشعراء الشعر ، وتدفعهم الى قرضه ·

٣ – كثرة جمهرة العرب في الاندلس ، وتمكن السلطان في أيديهم ، وشدة عنايتهم باللغة العربية وآدابها ·

٤ – طبيعة بلاد الاندلس وما فيها من المناظر المختلفة والامصار المتصلة والادواح الظليلة ، والانهار الجارية ، والسهولة الخصبة ، والجبال المكسوة والمروج الموشاة بألوان الزهر · والقصور الشاهقة والرياض الغناء · كل ذلك أكسب المواهب انطلاقا · والوجدان لطفا · والمعاني دقة · والالفاظ جمالا وروعة ·

٥ – عناية الملوك والامراء بقرض الشعر حملت الشعب جميعه على الاقبال عليه ، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب ، وجمالا لكل عالم · أولع به الفقهاء والنحاة والفلاسفة ، والرياضيون ، والاطباء ، والمؤرخون · كما أولع به كثير من النساء حتى نبغن فيه ، وبارين الرجال ، وقلن الجيد الممتع منه ، من مثل حمدونة الاندلسية ، وسواها ·

خصائصه الفنية :

وقد تميز الشعر الاندلسي بميزات واضحة في ألفاظه وأساليبه ، وفي معانيه وأخيلته :

١ – فأما من حيث الالفاظ والاساليب ، فقد تميز بسهولة في اللفظ ، وسلاسة في التراكيب ، وذلك أثر لسهولة طباعهم ، ولين أخلاقهم ، ورقة الطبيعة الاندلسية وجمالها ، ولارسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع ولا تحميل للالفاظ مالا تطيق من المعاني المزدحمة · حتى جاء شعرهم جاريا مع الطبع ، متساوقا مع الفطرة ، فضلا عن أنهم لم يبالغوا في الاخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها ، وما كان يقع لهم من ذلك في عباراتهم كان أكثره جميلا مقبولا ، لان الشعراء كانوا لا يأخذون من هذه الانواع البديعية الا ما كانت تجود به قرائحهم من غير تعمل ولا اجهاد خاطر · وان كان ابن هانىء الاندلسي يكاد وحده يتميز بطابع البداوة في ألفاظه وأساليبه ، فقد أحيا القعقعة البدوية في شعره ، وتناول من الالفاظ الغريب الممعن في البداوة من مثل شيظم وما شابهه ·

٢ – وأما في المعاني فانك تجد معاني الشعر الاندلسي واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء ، لقلة المشتغلين منهم بالفلسفة واضطهاد علومها في الاندلس ، وبغض العامة لها ، وكثيرا ما كان الشاعر الاندلسي يطرق المعاني المعروفة · ولكنه بما يولد ويركب ويغرب ويبدع في الصناعة يخيل للناظر أنه أتى بالجديد المبتكر ، وانما المبتكر ، التوليد والخيال ، والمعاني الجزئية · وهذا كان سمة لابن هانيء ، وان كان له أحيانا من المعاني الجديدة ما يسلكه في عداد الشعراء المبتكرين المجددين ، انظر الى قوله :

قمن في مأتم على العشاق
ولبسن السواد في الاحداق
ومنحن الفراق رقة شكوا
هن حتى عشقت يوم الفراق

ومن المعاني الطريفة التي كان يلم بها الشاعر الاندلسي أحيانا قول ابن برد في وصف انبلاج الصبح ، مع ما حلاه به من غريب التشبيه المبتكر :

وكأن الليل حين لوى
ذاهبا والصبح قد لاحا
كلة سوداء أحرقها
عامد أسرجها مصباحا

٣ ـ وقد غلب على الشعر الاندلسي الخيال البديع ، الذي نماه في ملكات الشعراء ضروب الجمال المنتشرة في شبه جزيرتهم ، وساعدهم ذلك على أن يجودوا التشبيه ، ويكثروا من استعمال المجاز والكناية في شعرهم ٠ ولا بد فقد كانت الاندلس مباءة الخيال ومسرحه ، بما ركب الله في طبيعتها من فنون السحر والجمال ، لذلك أتى شعراء الاندلس منه بالعجب العجاب في أشعارهم ، فلهم التشبيهات البديعة ، والاستعارات الفاتنة ، والتوليدات العجيبة ، والاخيلة الرائعة ٠ انظر الى قول حمدونة بنت زياد تصف واديا :

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه ، فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

ومن امعانهم في الخيال فشا في كلامهم هذا النوع البديعي المعروف بحسن التعليل ، فقل أن نجد شاعرا لم يستعمله ٠ ومن أمثلته قول أبى بكر ابن زهر :

وموسدين على الاكف خدودهم
قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلت أسقيهم ، وأشرب فضلهم
حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها
اني أملت اناءها فأمالني

أغراض الشعر الاندلسي :

طاب للعرب العيش في الاندلس ، وتمكن سلطانهم هناك ، وأخذوا يعنون بنظم الشعر في شتى الاغراض المطروقة في المشرق ، من مدح وهجاء ورثاء وفخر وحماسة وتهنئة ووصف وغزل وخمر وندمان ونساء وغلمان وعبث ومجون وزهد وتصوف ، غير أنهم فاقوا المشارقة في أغراض أخرى لاسباب اقتضتها طبيعة بلادهم ونظام معيشتهم وطريقة تثقيفهم :

(أ) فمن الاغراض التي قصر فيها الاندلسيون عن المشارقة ولم يجاورهم فيها :

١ ـ شعر الزهد والحكمة ٠

٢ ـ شعر الآراء الفلسفية بألوانه المتعددة ، من نقد النظم ، وأساليب الحكم وأخلاق الناس ، وذلك لضعف ثقافة الفلسفة وعلومها في اقليمهم ، ومحاربة آرائها هناك ، ولان عقلية الشاعر المشرقي كانت على العموم أوسع نطاقا من عقلية أخيه الاندلسي ٠

(ب) ومن الاغراض التي فاقوا فيها المشارقة ٠ الوصف ، ولا سيما وصف المناظر الطبيعية وجمال الكون ، حيث وصف الشاعر الاندلسي الرياض والبساتين والاشجار والازهار والثمار والطيور ، ووصف السحاب والرعد والبرق والمطر وقوس قزح والبرك والانهار والبحار ، وتوسعوا في ذلك حتى أحلوه محل النسيب في صدور القصائد ، ووصفوا أساطيل البحر لكثرة اتخاذها لحرب العدو ، وسير الجيوش ، ونشوب المعارك ، والقصور والتماثيل والفوارات ، ومجالس اللهو وآلاته والطرب والسمر ، وكل ذلك أثر لجمال طبيعة بلادهم وسحر مناظرها وتعدد مشاهدها البديعة ٠

(ج) ومن الاغراض الجديدة التي نظموا فيها :

١ ـ رثاء الممالك الزائلة : وذلك حينما تقلص ملك المسلمين واستولى أعداؤهم على مدنهم وحصونهم : كقول صالح بن شريف الرندي يرثي الاندلس :

لكل شيء اذا ماتم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

٢ ـ الاستغاثة والاستنجاد بالنبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصالحين ، وترغيب ملوك الاسلام في انقاذ البلاد ، وقد كثر ذلك في القرنين : الثامن والتاسع ، حين توالت عليها غارات الاسبان ، ومن ذلك قصيدة ابن الابار يخاطب ملك المغرب ومنها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
ان السبيل الى منجاتها درسا

٣ ـ نظم العلوم والفنون : وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها ٠

أشهر الشعراء الاندلسيين :

نبغ في الاندلس كثير من الشعراء ، منهم : ابن عبد ربه الاندلسي (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ) ، وابن هانيء (٣٢٦ ـ ٣٦٣) ، والغزال يحيى بن حكيم الشاعر المطبوع (١٥٦ ـ ٢٥٠ هـ) ، وابن زيدون (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ) وابن خفاجة (٤٥٠ ـ ٥٣٣ هـ) ، وابن وهبون المتوفي قبل عام ٥٣٣ هـ ، والاعمى التطيلي المتوفي قبل عام ٥٤٢ هـ ، وابن برد الاصغر الذي قتل عام ٤٣١ هـ ، وأبو حفص الاكبر المتوفي عام ٤٢٨ هـ ، وابن دراج القسطلي (٢٤٧ ـ ٤٢١ هـ) ، وابن الحداد المتوفي عام ٤٨٠ هـ ، والفتح بن خاقان المتوفي عام ٥٢٩ ، ولسان الدين بن الخطيب (٧١٣ ـ ٧٧٦ هـ) ٠



شوقي عرفات ما له وما عليه ...

نقد وتحليل حول رواية « القلب الكبير »

بقلم : وليد مدفعي

الاستاذ شوقي عرفات مؤلف رواية « القلب الكبير » . عرفته من خلال صفحات روايته فعرفت فيه انسانا طيب الخلق ، رقيق الحاشية ، يحب الدلال والاعمال الحسنة . ومهما تكن لديه من قدرة على التخيل فلا أعتقد ان التخيل وحده قد أحيا شخصيتين هما الاستاذ عبد الحميد ثم الطفل حسين الذي ترعرع في بيت قويم . بل ان الاستاذ أضفى من نفسه وطبعه المرهف الشيء الكثير .

ان رواية « القلب الكبير » ليست اولى أعمال المؤلف ، فالاعلان المبوب في نهاية الكتاب يخبرنا بصراحة عن وجود رواية « عذارى المنصورة » التي نفذت من الاسواق على الرغم من كونها فاتحة أعمال المؤلف . ويخبرنا الاعلان بكثير من الجرأة عن ثلاثة كتب تحت الطبع ، لا أجد بأسا في ايراد اسمائها في مقالي هذا كدعاية مسبقة وجزى الله المحسنين خيرا .

يبدو من أسماء الكتب وهي « أنا بائسة – جسد جائع – رتيبة » ان الاستاذ شوقي عرفات لم يكن محافظا في كتابية السابقين بل وسيظل محافظا في كتبه الثلاثة اللاحقة . اذا قيد لها ان تخرج من تحت الطبعين اللذين يؤلف طبع الاستاذ واحدا منهما . وليس غريبا ان يحافظ الاستاذ شوقي في كتبه فقد عاش في الاقليم الجنوبي وقد حافظ اخوة له من قبل . ولست في هذا المقال منصبا نفسي رقيبا وحسيبا على أفكار الاستاذ شوقي واخوانه المؤلفين في الاقليم الجنوبي فلهم ان يحافظوا ما شاؤوا على الافكار المكرورة والمواضيع القديمة ، ولن أبيح لنفسي أكثر من اطلالة بين الصفحات تراقب انسجام الافكار ومنطق تواردها أو تناقضها .

قامت رواية « القلب الكبير » على هيكل جميل يحمل تناظرا بين البداية والنهاية فهو مغزل هندسي انتقل أبطال القصة عليه .

بدأت الرواية في رأس المغزل بلقاء بين انسان رحيم هو الناظر عبد الحميد وبين طفل يتيم الاب هو حسين الذي يعيش مع أمه واخوته في فقر مدقع ، ثم تزوج الناظر من أم حسين وتبنى العائلة كلها فاصبح لازما لسعادة الاسرة وكان الناظر يتمنى أن يرزق الى جانب هؤلاء الاطفال بولد من لحمه ودمه . لكن هذا الامل وما تلاه من محاولات قد اوقعت الغيرة في قلب حسـ[illegible] من أخيه المنتظر الذي يخشى حسين نفسه ان يحتـ[illegible] في قلب الناظر .

نما حسين ونمت معه غيرته وبدأ الـ[illegible]

البطلين حتى بلغ أقصاه عند بطن المغزل ، وكان من الممكن أن يبدأ التقارب من جديد بين وجهتي النظر لولا وفاة الاسرة كلها في حوادث بور سعيد ولم يسلم من ذلك سوى الطفل ابن عبد الحميد وبطل الرواية الثاني حسين الذي كان آنذاك مدرسا في الكويت .

انتهت الرواية بلقاء بين حسين الذي أصبح رجلا ذا مال وذا وظيفة مع الطفل اليتيم ابن عبد الحميد وهذا اللقاء قد اكمل المغزل وأوضح التناظر في القصة وللقارىء ان يتخيل بعد ما ينتهي من تلاوتها امكان تكرر القصة من جديد لان حسين سيتزوج في يوم من الايام وسيشعر ابن عبد الحميد بالغيرة فتعاد القصة كاملة مع تغيير طفيف .

لقد لخصت الرواية متابعا خطوطها العريضة التي رسمت المغزل دون التفات الى حبيبة حسين ، التي أصبحت خطيبته وقتلت في القاهرة خلال معركة القنال . لانني لم أجد لها دخلا في سياق الرواية الاساسي ، انها ضرورة أملتها على المؤلف حاجته لانشاء حوار يوضح بعض الغاز الرواية وأملتها أيضا ضرورة تزيين القصة بفتاة ذات جمال واحساس انثوي تبادل البطل القبل بين حين وآخر .

ان هيكل المغزل من المخططات المعروفة في الرواية والقصة القصيرة لكنه اليق للرواية من القصة القصيرة وذلك لان اعادة التناظر يفترض مرور جيل كامل هو أغنى من أن تلمه صفحات قليلة بفنية خصبة . وهذا الهيكل المغزلي يستعمل غالبا في الروايات الاخلاقية لانه يتلاءم وطبيعتها من حيث انها تحاول ان تعطي عبرة وعظة وما أغناه من درس يقدم النتيجة بالتكرار . ان رواية « القلب الكبير » قد اختارت مخططا خدم الفكرة الى أقصى ما يمكنه المغزل من الانتفاخ دون توسع يضيع معالم القصة او اختزال يجعلها حكاية جدة .

انني لا أستطيع في الواقع الا ان اثني على هذا الاتساق بين المخطط والحوادث المتعاقبة من جهة وبين المخطط وغرض الرواية الاخلاقي . وأرجو المؤلف الاستاذ شوقي عرفات ان يحافظ على هذا الاتساق فلا يغريه ضرب الارقام القياسية في الحجم تلك الموضة التي انتشرت لدى اخوانه المؤلفين في الاقليم الجنوبي .

الجو العام في الرواية سلس دون مبالغة او افقار ، وهو جو لطيف ليس فيه تعقيد ولا يخلو من المفاجآت التي تمسك بالقارىء . لكنه لم يخل من الافتعالات والملاحظات المحشورة دون ضرورة . لقد لاحظت حشوا في الصفحة (٣٦) عندما قال دون مناسبة « كان هذا الكوبري متعبا لذوات الكعب العالي فكثيرا ما حدثت لهن حوادث اذا لم ينتبهن الى موضع الخطر » ثم وصف سوق المدينة ووقوف حسين أمام المخازن . فليس من ضرورة لايراد ذلك كله ولا سيما ان حسين وأمه يبحثان عن سعادتهما في المنصورة .

كان الافضل تأخير مطلع القسم السادس في وصف المنصورة صفحتين ريثما يبدأ العام الدراسي حتى لا يضطر المؤلف الى العودة الى فترة الصيف والماء وغير ذلك وينتقل ثانية الى فكرة العام الدراسي في الصفحة (٦٤) .

يقول حسين في أحد المشاهد « رحت انظر اليه وكأنني الفظ كل حقدي وثورتي عليه ومنعتني لوحة صغيرة كتب عليها (للعائلات فقط) ان انزل الى هذه الخضرة واحمل المقعد وأقذف به الى أعماق النيل » . فلا أعتقد ان لوحة صغيرة تمنع من ارتكاب العمل ولا سيما ان قذف المقعد جنحة أشد من خرق اللوحة .

أما ما تبقى فقد احتوى الكتاب ملاحظات جانبية أغنت الرواية وكانت رائعة وزان الوصف في مواضيع كثيرة المشاهد فهي تموج بالحركة واللون .

قدمت الرواية عددا من الاشخاص ولكنها لم تعتن الا بشخصيتين فقط اعتناء واضحا وابقت الشخصيات الاخرى في الظلمة . ان اخت حسين لم تظهر في الرواية وكأنها غير موجودة وظهر أخوه في خاتمة القصة عدة مرات لكنه لم يشارك ولم يفكر في القسم الاول قد يكون ذلك لحداثة سنيهما لكن ذلك لا يمنع الاشارة اليهما كمخلوقات حية في المنزل نفسه .

لقد فشلت الرواية في نظري في تقديم أحياء يعيش معهم القارىء . ان جسمين كبيرين قد أغنيا وضاعت الشخصيات الاخرى وراءهما .

ان عقدة الرواية الرئيسية في الرواية غير معللة في مواضع كثيرة .. لان الغيرة التي نهشت حسين طفلا من ان يرزق عبد الحميد بولد من لحمه ودمه قد سبقت مجيء الولد والسؤال الذي يطرح في هذا الخصوص هل يستطيع طفل في مثل عمره أن يقدر ضرورة الغيرة والاحداث المقبلة قبل ان يصبح الطفل الثاني موجودا ويحس بحب ابويه له انني لا أعتقد امكان حدوث الغيرة مسبقة قبل ولادة الطفل الثاني . ثم عندما تأخر مجيء الطفل لم نشاهد أي تطور في شخصية حسين مع انه نما عن ذي قبل وأصبح أوسع ادراكا . ولذا فان الاستمرار من قبل المؤلف على الاصرار في تفسير نفسية وتصرفات البطل من خلال غيرته الى حد بعيد ومدى شاسع غير مقبول بتاتا .

أما فيما يتعلق بتصرفات الابطال والشخصيات الثانية فان القدرية أمر واضح يقيد تفكيرهم فهم منفعلون غير فاعلين في تجنب الكوارث او تلقي السعادة • ان الصدفة تلعب دورها دائما وهذا ما أشرت اليه في أول الحديث عن بقاء المؤلفين في الاقليم الجنوبي ضمن دوامة القدرية والايمان بالمصير المحتوم وغير ذلك من المواضيع التي نجدها في تآليفهم •

المؤلف غير مسؤول عن اعطاء أية وطنية في رواية اخلاقية كهذه • ولذا فان كل الصفحات المتعلقة بالعبارات الطنانة التي تنفخ الحماس وتندد بالظلم والاستعمار هي خارجة عن فنية الرواية وهدفيتها ولا أعني بذلك الالم الذي كابده البطل من جراء النكبة وانما أقصد الآراء السياسية التي طرحت في التعليق على بعض المواضيع •

يقول البطل « ثم جهرت بصدق – كي أشارك في بناء نهضة الكويت وأسهم في تعليم اخواني في هذا الجزء من الوطن العربي » مع ان الحقيقة هي أننا نذهب الى الكويت من أجل المال الحلال الذي نتقاضاه مقابل المشاركة في بناء نهضة الكويت •

وأخيرا فالرواية جيدة اللغة والاسلوب فيها متين والاستاذ شوقي عرفات يكتب بقلم حي عبارات بسيطة لكنها موحية ومعبرة • ولقد احتفظت لنهاية المقال بلفتة بارعة قد أوردها المؤلف خلال صفحات الكتاب أكثر من مرة فجعلها كاللازمة الموسيقية التي ننتظرها ونعجب بها كلما تكررت الا وهي موضع الخرق في ثوبه عندما كان فقيرا فقد تحسسه مرارا وهو يرتدي ثوبا جديدا وفي ذلك أبلغ معنى في التعبير عن الخوف من المصير المجهول •

دمشق – وليد مدفعي

حبات قلب

شعر : خليل خوري

نقد : محي الدين صبحي

- شعر خليل الخوري مزيج من المغامرة الفردية في ارتياد الشهوة والموت والغربة ، ومن التجربة الجماعية في أكثر ما حصله وجدان الجيل الطالع من خبرات وانطباعات •
- فبعد كل ثورة انسانية يعم الشعور بالخيبة لان الفرق كبير بين الفكرة والايجاز •• وخليل من جيل الخائبين ، فاذا كان الظل يعتم جوه فذلك يسبب اخلاصه لجيله •
- لكن الرفض عند خليل يمنع الخيبة أن تستقر فتصبح يأسا • ان رفضه كالشفق في فجر ليلة عاصفة •• لا يبشر بالهدوء وانما يزيل الخوف •
- وفي كونه فردا نجده نهم الحواس يقذف بنفسه الى أعماق غريزته • انه يمزق ورود الجسد لا حبا في الجمال فقط ، بل سعيا وراء معنى يجده في متعته • انه يتجاوز حدود الجسد •
- الموت ! •• انه الهاوية التي يتأرجح الشاعر على شفاها كلما أمعن في تحديد للجسد •• ولذلك يتأكد لديه أنه غريب •• وحيد •• سأمان •• غارق على الدوام في الرعب والرعشة وتمني الخلاص •
- من هذه العناصر جميعها ، ومن لغة طيعة وقاموس واسع وعربية قل أن نجد في مثل أشراقها يتكون شعر خليل ، فيبني له أوائل مجد راسخ في الموروث من الشعر ، بازغ بين الجديد ، متميز بشخصية عميقة وتجربة مديدة نتجت عن مشاعر جيل مثقف مهزوم •

★ ★ ★

هذه السطور ، قدمت بها الى القراء شعر خليل خوري دون أن أقصد بها الاقتصار على ديوانه الاول « حبات قلب » ، أو بالاصح دون أن أقصد معظم المقطوعات المثبتة في الديوان ! وما دفعني الى كتابتها هو ايماني العميق بموهبة خليل خوري الشاعر • انها موهبة تمتاز بالعنف والذاتية وشيء من العمق الذي يؤدي الى صفاء التأمل وصدق الرؤيا • ومن يقرأ قصائده الحديثة التي ما فتىء ينشرها في كبريات المجلات الادبية يجد فيه خميرة شاعر يستطيع بانتاجه الجاد أن يضيف شيئا جديدا الى الشعر الحديث وأن يظل مرتبطا بجذوره التراثية • ولعل شدة التصاقه بهذا التراث بين من قصائد ديوانه الاول ، فهي نفثات غنائية يهمس فيها الشاعر مصليا للجمال والحب في لحظات وجد ثائر وذهول عابر • ولعلنا نستطيع أن نستخرج خصائص الديوان بالرجوع الى أبيات من قصيدة « الضفاف السحر »

في مجد مجدك نحن عباد
ولنا غوايات ، وأمجاد

رحلاتنا في الطيب غمغمة
فالمنتهى غزل وأعياد

يخت يغذ الى جزائرنا
وتشير في المجهول آباد

الصحو في عينيك مرفأنا
فكأننا في الصحو رواد

لعب · وأشياء منحنحة
وخيالنا ، يا أخت ، صياد

فأول ما يشد هنا لهجة الخشوع التي يؤدي بها الشاعر انفعاله · وهي نبرة كنسية تسود معظم القصائد، وتعتمد على التبتل ورفع صورة الحبيب الى مقام التأله ، والانقطاع لها بزهد العابد وهيام الصوفي المترهب · كما في قوله :

هذي القصيدة من عينيك لا لهما
فلست أملك ما يهدي لمجدهما ··

والغموض هو الصفة الثانية التي يعتمدها هذا النوع من الشعر · فلسنا نجد في الابيات السابقات صورة واقعية واحدة ، فكل ما هناك تمنيات وأحلام وجو شفاف ملفع بضباب هيمان ، يستطيع أن يلف القارىء بجو روحي يستشعر معه شيئا من النشوة التي يحدثها الشعر والانفعال السريع هو طابع أكثر القصائد · مما يجعل لكل قصيدة ومضة تلتمع ثم تنطفي فليس للانفعالات العميقة مجال للتأمل والتطويل والدراسة ، الا أن هذا النغم الصوفي في نداء الجسد ينطوي على زخم انساني ينقذ القصيدة من الابتذال والتجوف · والسمة الشاملة التي ينطوي عليها الديوان وتنضوي تحتها الخصائص السابقة ، هي الغنائية · وقد يحتج قائل ما بأن الشعر العربي كله غنائي · لكن هذا القول فاسد وبخاصة اذا أطلق تعميمه على الشعر العربي الحديث · فاعتماد التفعيلة الواحدة وانتهاج الضبط والتركيز في الاسلوب، والحد من انسياب العاطفة والخيال ، وانتهاج البناء الهرمي ، والتزام مضمون انساني علمي ·· كل ذلك يؤدي الى شحوب الغنائية وبزوغ تيارات جديدة في النفس عند العرب · وشتان ما بين أي انتاج للشاعر خليل حاوي ، وبين قول شاعرنا :

الليل يعرف أنها تخجل
وتخاف قيل الناس في البلد
فاذا أهلت ليلة الاحد
لم يبق في كبد السما مشعل
الا طواه ، فحبها أول
والبنت يا أهل الهوى تخجل

ان لين الحروف وتوشية الكلمات وبساطة الاخيلة والافكار ، هي المقومات الاساسية للشعر الغنائي ·· على أن خليل خوري لا يكتفي بالشعر الهامس الذي هو غناء نفس متوحدة والذي يتأثر كثيرا بالجو المسيحي وفكرة الخلاص والصلب والمحبة ، فخليل يقدم لنا ثورات توراتية ويغادر النقاد الصوفي الى حمأة من الطين والخطايا قريبة الشبه بما ترك لنا أبو شبكة في « أفاعي الفردوس » نجد ذلك في قصائد « الطوفان الاسود » و « البقايا العائدة » · وهناك قصائد فجة ذات عرض مباشر للشعور والتجربة مثل « مونليزا » و « تنورة الحلوة » و « حب » و « امرأتان » ·· وثمة قصائد جميلة في شحوبها ظل للشاعرة نازك الملائكة مثل « الحلو والمر » و « الصقيع » ·· الا أن علاقته بشعر نازك علاقة عابرة · ان من يقول :

ما الذي تعرفين أنت عن الحب ، عن الموت في سبيل ابتسامة ·

عن ضياع الانسان ، عن ثورة الاشواق ، عن سهد مقلة مستهامة ·

لهو شاعر يتحدى باستمرار ولا يملك النزوع والعزلة واجترار الصمت الموجود عند نازك ·

بقت قصيدة فريدة ، كنت أحب أن يسمي الديوان باسمها ، وهي بالغة في الجودة حدا يحقق معه نقل التجربة الشعورية الواقعية ، وتملك من المقدرة ما يوصلها الى مستوى التعبير بالصور والتنامي الهرمي والترابط العضوي ، وهي تضيق حتى تخص الشاعر وتتسع حتى تنقل توق الانسان الى الامن والسكينة وتتجسد ، ثوب سجربة محلية وتتجرد حتى تحمل معها وله الشباب ولهفته · وهي بعد كل ذلك بكر بكر ما قرأت في موضوعها لشاعر ، ولقد تجاوز بها خليل نفسه وديوانه هذا · القصيدة بعنوان « أراك غدا »

« أراك غدا »
ونمضي : أنت للبيت
وقلبي نحو غربته ،
يجر عذاب وحشته
وحزنا لافحا سكبت مرارته « أراك غدا »
وما غير الوجوم المر والصمت ·

وقد كان لنا أن نعين مكان ديوان « حبات قلب » لو أن الشاعر قد تنخل خير ما لديه · ولكنه آثر أن يجمع غنائياته في ديوان نرجو أن تتلوه دواوين تنصف خليلا وشاعريته الحقة ·

محي الدين صبحي

القافلة في الطريق

شعر : ممدوح مولود

أرسلت باسمك يا سمراء قافلة … من الكنوز فهل جاءتك قافلتي
حملتها أطيب الاشواق أروعها … وهل تضم سوى الاشواق مائدتي
حملتها نشوة الخلجان رانية … الى المويجات في أبهى منازعة
زودتها لؤلؤ الاعماق تسألني … أصدافه من ساهدي ، أي غانية
حملتها لهفة الشطآن حالمة … بطيف صارية في الافق قادمة
حملتها شوق غابات الشمال الى … بعض النسيمات تسري في مداعبة
وجئت بالماس والياقوت من أفق … غامرت في غزوه أحلى مغامرة
قطفت من أجمل الازهار أجملها … ورحت أنظمها عقدا لقافيتي
فان تحدثت عني ذات أمسية … فما تقولين عني في معاتبتي
لئن نسيتك في أمر فمعذرتي … أني أتيتك والامواج حاديتي
لم أنس شعرا ولا خدا ولا شفة … ولا نهودا ولا حبا لخالقتي
للشعر أحضرت ألوان الغروب وهل … أهوى المساء سوى في شعر فاتنتي
وللخدود جلبت السحر في ـ فن … من جنة غاصة بالسحر نائية
حملته سفني والريح عاصفة … ولم أهب نقمة غضبي لآلهة
وللشفاه نظمت الروح قافية … ولهى لتركع في محراب ساحرتي
رويت ذكراك للاطيار فالتفتت … وللنجوم فهل .. هل أنت ذاكرتي
زرعت ذكراك في كل المروج فهل … هل أنت عما سرى فيها مسائلتي
هب النسيم مويجات مهفهفة … على المروج فماست ميس راقصة
كأنها تحمل الزلفى لشاعرها … تحية حلوة من قلب شاعرة
همست في أذن الامواج قصتنا … ولم أهب لفحة من أي عاصفة
فقد نشأت مع الامواج كيف ترى … تقوى العواصف ان تبغي مصارعتي
تروي الشواطىء أني قد مررت بها … محملا بكنوز .. اية نادرة
موجها دفة السكان ناحية … في نقطة ما وراء الافق قاصية
حتى الشواطىء حيتني مودعة … وهل اذا حلمت لوما بناسيتي
وهب في وجهي الاعصار واتجهت … نحوي الرياح وقد جنت بقافلتي
ولم تسل ، لم تسل من .. من تقاتله … ولم تكن أنها تدري مقاتلتي
لا ترهبي البحر ، لا تخشي الرياح ولا … لا تحسبي ثورة الارياح غائلتي
أقسمت أن أتخطاها ولو صبغت … منها يداي دماء غير آسفة
أرسلت باسمك ويح الريح قافلة … تحوي نفائس أرباب وآلهة
فكيف ألقي بها للريح وهي كنوزي … وهي أغلى الذي يهدى لغاليتي !!..

فلوريدا ـ ممدوح مولود

بين آمال وآلام :

غرام تائه

شعر : حسين الراشد

« الى من عاش مثلي بين
الشكوى والانين يرصد طريق
حبه دون أن يرى أي عابر فيه »

تعصف الاشواق في نفسي وفي أعماق روحي
ولهيب الحب يشبو من دم القلب الذبيح
وحياتي بين آهاتي ونيران جروحي
حائرا في تيه أشواقي وشكواي ونوحي
أنت من أنت ؟ حبيبي لست أدري من تكون
زورق الايام يسري ، يتهادى في سكون
أرقب الافق بمنظار الاماني والحنين
عل أحظي برؤاك بين أمواج السنين
وأنادي كل يوم ما سمعت من مجيب
أين أنت ومتى تجليك أستار الغيوب
كم أمني النفس أن القاك في عهد قريب
يا حبيبي أين أنت من حشا قلبي الكسير
نسجت روحي لك الطيف فكن أوفى سمير
بين أحلام وحب ، بين خمر و عبير
كي تنجي الروح من ترقب قاس مرير
هل أحب يا لحب غامض الكنه غريب
فاحاسيس الغرام في كياني كا للهيب
في ذهول الحالمين ، بين شدو ونحيب
يمضي عمري ، والها ، أشكو النوى دون حبيب
هل أحب فيك يا قلبي سمات العاشقين
في محاريب الهوى آلهة للعابدين
ان محرابك يبدو مقفرا للناظرين
أتراك تعشق الشكوى وتشتاق الانين
يا فؤادي ضاع عمري في صدى كأس وكأس
بين أحلام ووهم ، بين آمال ويأس
حبي التائه قد حير أفكاري ونفسي
وصدى خفقة قلبي ضاع في يومي وأمسي
أنت يا نفس اطرحي الاوهام من قلب وروح
وانفثي الآلام والآهات من صدري الجريح
وكفى يا عين من دمع بأسراري يبوح
آن من حملي أعباء الهوى أن أستريح

أدلب ـ حسين الراشد